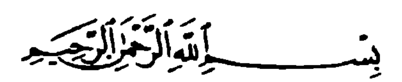
نُهُوضُ التَّفْكِيرِ

التَّفْكِيرُ المَفْقُودُ

أ. د. عَبْدُ الكَرِيمِ بَكَّار

دَارُ السَّلَامِ
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



بسم الله الرحمن الرحيم


التفكير في المفقود

نُهُوضُ التَّفْكِيرِ



تأليف

أ . د . عبدالكريم بكّار

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

بكار ، عبد الكريم .

التفكير في المفقود / تأليف عبد الكريم بكار - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٠م .

١٠٤ ص ؛ ٢٠ سم .(نهوض التفكير).

تدمك ١ ٨٩٢ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - التفكير .

أ - العنوان.

١٥٣,٤٢

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م عن عشر الجائزة تقديرًا لعقد ثلاث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر

هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)

بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

فِهْرِسُ ٱلمُحتَوَيَاتِ

• • •

قبل أن نبدأ:

لا خوف من المستقبل
ما دُمنا نؤمن ونُفكِّر ونُبدع

نُقدِّم هذه الإسهامات الجادة التي تمرِّن العقل وتُنشِّط الفهم وتفكِّر في المفقود بعيدًا عن الاستثناء والضرورة وحالات الطوارئ وشعارات التصدي والمواجهة والمجابهة؛ فباسم هذه الكلمات مُورس استغلال وجرائم بحق شعوب كاملة، وألقي بالإنسان في غياهب ضياع في ضياع.

إنّنا نكره فكرة الضرورة التي أملتها جوقة بعض السلاطين ووعّاظهم من المثقّفين فهي كما يقول رئيس الوزراء السابق وليم بت (١٧٥٩ - ١٨٠٦م): « ذريعة كل انتهاك للحرية الإنسانية، إنها حجة الطغاة، إنها عقيدة العبيد » [1].

بل نفهم أن الواجب علينا إزاء تحديات الراهن التي يمليها علينا القهر الداخلي والظلم الخارجي، التقدُّم وبإلحاح إلى تطبيق المقولة: « المشاريع الصغيرة الواقعية خير من الشعارات الكبيرة الخيالية ».

وهذه ليست ضرورة بل واجب حقيقي، وقد أشار إلى

---

(١) قاموس الأقوال المأثورة، إعداد جورج خوري.

هذا الخطيب الدمشقي، فقال المهندس أحمد معاذ: ليكن لكل منا مشروعه الخاص الصغير، ودعونا لا ننتظر الأمور الخارقة؛ لأن حركة التاريخ كما يقول مالك بن نبي رَحِمَهُ اللهُ: إنما تصنعها آلاف الجهود الصغيرة التي لا نُلقي لها بالاً، وليكن مشروعنا الخاص الصغير في أي درب مباح فإن موعود الله تعالى حق، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] (١).

إن الطموح كبير في بناء ثقافة تحرِّض على الوعي وتخرج بالإنسان من الكلالة إلى الفاعلية والإنجاز وهي المدخل الرئيس لبناء نهوض وتحرر إرادة.

إن التفكير في تفكيرنا وخارطتنا الجغرافية الفكرية والتكلُّم بصراحة عن دوائر التأثير الحقيقية والقراءة في منظوماتنا البنائية الفكرية هو الخطوة الأولى للخروج من الهوان المبصر، فجذر المشكلة يكمن في مرجعيات المعنى، وأنماط الرؤية، أو في شبكات الفهم، وسلم القيم - أي في عالم الفكر بنظامه ومسبقاته أو بقوالبه أو أحكامه أو بإداراته أو سياسته -، ولا عجب؛ فالتفكير الذي هو حيلة الإنسان سلاح ذو حدّين قد نصنع به المعجزة، ونخرق الشرط، ونفك الطوق، لكي ننتج المعرفة والثروة والقوة بقدر ما نمارس

---

(١) www. darbuna. net.

علاقتنا بوجودنا بصورة حية وخصبة، خلّاقة وبناءة وفعّالة وراهنة، وقد يولد التفكير العجز والخواء، أو الجهل والعماء، أو التسلط والاستبداد، وذلك بقدر ما نتعامل مع أفكارنا بصورة متحجِّرة ومغلقة، أو أحادية وحتمية، أو طوباوية وفردوسية، وبقدر ما نتعامل مع الأحداث والحقائق على سبيل التبسيط، والتهوين، أو التهويل، والتضليل، أو التلفيق والتزييف، أو التهويم، والتشبيح.

وهكذا فأزماتنا وكوارثنا ليس مصدرها الآخرين أو الأقدار فحسب؛ بل أفكارنا بشكل خاص كما تتجسد في العقليات والمرجعيات، والنماذج والمقولات والتصنيفات، والعقائد والطقوس، التي تهيمن على المشهد الثقافي العربي، وتتحكّم في الخطابات التي في غالبها تنتج العوائق والمآزق، وتلغم المساعي الوجودية والمشاريع الحضارية.

وقد أوضح الدكتور عبد الكريم نقاطًا مهمة فبيّن قائلًا: إننا معاشر المشتغلين بصناعة الثقافة، ربما كنّا مبالغين في تقدير دورنا في نهضة الأمة وإصلاح شأنها. لكن هذا لا يمنع من الاستمرار في العمل، إنما مع ضرورة البحث عن الوسائل والأُطر التي تحوّل الأفكار الجيدة من كلام منطقي منمّق إلى تربة خصبة تحتضن الشجرات الباسقة.

إن الفكرة تكون كالعاصفة العاتية إذا كانت تلخيصًا

لتفاعلات مرحلة كاملة، وتكون أشبه بسفينة عملاقة إذا تبنَّتها دولة، وتكون بمثابة نور متوهِّج إذا تبنَّتها جماعة، وأخذت تربّي أبناءها عليها.

ثم قال في مقاربة ثانية: ربما احتاجت كل فكرة من الأفكار الأساسية إلى مؤسسة تنهض إلى تحويلها إلى فعاليات وأنشطة، وتجسِّدها في حركة اجتماعية واعية، وتوفِّر لها إلى جانب ذلك آفاقًا جديدة للنمو والتطوّر، وتصقلها من خلال النقد البصير.

إذا كانت لدينا فكرة جوهرية في تنمية الإبداع - مثلًا - فإن تأثير هذه الفكرة في إيجاد طليعة مبدعة سيكون قريبًا من الصفر. وسيكون الأمر مختلفًا إذا أنشأنا بناء على تلك الفكرة مؤسسة لرعاية الموهوبين واكتشاف المواهب.

وإذا كان لدينا أفكار أساسية حول أهمية التربية المبكرة في تكوين شخصية الطفل، فإن علينا أن ننشئ سلسلة من رياض الأطفال النموذجية التي تتجسد فيها أفكارنا التربوية.

إنها رؤية الإبصار والتنوير الداخلي بدل شيوع مفردات الهجاء الكيدي التناحري الذي يشتم ويتوعد، والذي استهزأ به الخطيب المهندس معاذ فجرح مداويًا، وصرّح مناديًا: « ليشق الخطباء حناجرهم في لعن أعدائنا، وليمتلئ الشارع بالهتافات، وليُصعِّد الإعلام سخطه واستنفاره؛ فكل ذلك

لا يقفز فوق المقدمات الصحيحة، إن الأقدام الغازية لم تأت بسبب قوتها؛ بل بسبب الظلم الذي عشعش في بلاد العرب والمسلمين، فقتل الألوف المؤلفة، وهجّرها وشرّدها وسجنها، وعطّل الطاقات، ونهب الشعوب، وقتل الإبداع، والمبادرة، وضيّق على كل ذي نشاط وفعالية، ثم قام الظلم بكل صفاقة يتغنّى بالبناء والنهضة والتطور، بعد أن تفرّجت الأمم الذبيحة برعب ولعقود على فلذات أكبادها، يُذبح الواحد منهم تلو الآخر ولا يجرؤ أحد على الكلام في بلاد الصمت الطويل، وإن سمح بشيء فهو من تتمات أصول اللعب والتدويخ والاستيعاب للشعوب المسكينة الغافلة ».

ويتابع رئيس جمعية التمدن الإسلامي بدمشق فيشير إلى أنه: « حاول البعض الخروج من هذه المتاهات المرعبة حقًّا، فوقع بعضهم في فكر تكفيري دموي - وهو ما نرفضه تمامًا - أراق حتى الآن من دماء المسلمين الأبرياء ما لم يصبه من دماء المحتلين والغاصبين؛ هذا عمل مَن قد يُظن ببعضهم الإخلاص، فما بالك بمَن هم ضحايا الاختراقات المخابراتية التي لم تعد خافية على متتبع للأمور، والتي تتعمد كل يوم إعطاء المبرر لزيادة توحّش الظالمين، وزج الأمم والشعوب التي تجهل الإسلام وراءهم من خلال زرع الكراهية للإسلام وأهله في قلوب أبناء تلك الشعوب، وتنفيرهم من الإسلام وأهله، وبين يدي تلك الأجهزة المخابراتية أطراف ساذجة

متقدة العاطفة سقيمة الإدراك، تقوم بما عجزت عنه أصابع الحاقدين على الأمة خلال عقود، وكذلك اقتصار الفهم التناصري على مبدأ تسييس الدين فقط ».

وقد اشتكى من هذا الشيخ راشد الغنوشي في كتاب (تمرد على الممنوع) فقال: « والحقيقة أن جوهر المشروع الإسلامي ليس سياسيًا (هو الدولة)، وإنما هو فكري اجتماعي تربوي متجه أساسًا إلى الفرد وإلى المجتمع وإلى الناس كافة، وعلى أساس ما ينجزه على هذا الصعيد يقاس نجاحه أو فشله، وهو ما يجعل الحرية والعدالة على رأس مطالبه باعتبارهما قيمة أساسية في الإسلام ومدخلًا لا بديل عنه لكل إصلاح ».

والعوائق الداخلية، عائق التجزئة، وعوائق فكر التغريب وفكر الانحطاط، ومن هذا الأخير قلة رسوخ فكر الحرية والتعددية في موروثنا بما يجعل التوصل صعبًا إلى الإجماع الضروري لكل اجتماع وكل تغيير، وكذا إدارة الحوار والتعامل مع الاختلاف سلميًا، بحثًا عن المشترك. وما حصل بين الجماعات الأفغانية الجهادية المنتصرة من تقاتل استكمل تدمير البلاد، وأسلمها لأشد عناصر الإسلام تخلفًا (طالبان) الذين انتهوا بحماقاتهم إلى توجيه الدعوة إلى الأمريكان. وليس بعيدًا من ذلك ما انتهى إليه أهل المشروع الإسلامي في السودان من تنازع، ذهب بريحهم، ودفعهم إلى التسابق على

الاستظهار بعضهم على بعض بالتمرد وبالخارج، كل ذلك ثمرة لهزال بضاعتنا في ثقافة الحرية والتعددية وفن إدارة الاختلاف سلميًا، وهو ما نجح فيها الغرب بعد عصور من الفتن والتقاتل، فطفق يتقدّم بثبات صوب الإجماع متجاوزًا صارفًا الأنظار عن مواطن الاختلاف، يهملها مرة ويدعها لعامل الزمن يعالجها أحيانًا أخرى؛ بينما يتوقّف قومنا عند كل نقطة اختلاف فتتضخّم عندهم حتى تغشي أبصارهم عن ساحات الوفاق الفسيحة.

ومع ذلك فالثابت أن الأمة تتقدم وتقوى رغم أن الدولة فيها تزداد ضعفًا وخواء من الشرعية وتعويلًا أكثر على العنف مصدرًا للشرعية معززًا بالظهير الخارجي.

الإسلام واقع اليوم رغم استمرار نقاط الضعف الداخلي والعوائق الخارجية على سلم تاريخي صاعد، بينما مذاهب العلمنة في حالة ذبول وشيخوخة رغم أنها في سدة الحكم على الصعيد العالمي والإسلام في المعارضة، ولكنه المعارضة الرئيسية، وستعمل سنّة التداول عملها. قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وهو تداول لا يعني الإلغاء، ولكنه استيعاب لما هناك من كسب، وتشكيله في صيغ حضارية جديدة تتكفل بحل مشكلات مستعصية وضخ دماء جديدة في جسم الحضارة

العالمية. ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الروم: ٤،٥].

علينا أن نستمع إلى الاتباع الواعي الذي أنتج المنهج الإبداعي؛ حيث يذكر الأستاذ أحمد معاذ الخطيب أن المقدِّمات غير الصحيحة لا تثمر إلّا عواقب وخيمة، وسنن اللَّه تعالى لا تحابي أحدًا، وعلى المؤمنين ألّا يقعوا في فخاخ الجهل السنني.

ألا يحق لنا أن نسأل: كيف ولماذا؟ فإن التباكي الذي عودتنا عليه وسائل الإعلام حتى قتلت في النفوس كلمات كثيرة لكثرة مضغها له، كل ذلك لم يقدم للأمة ولا رأس دبوس تعتمد عليه، وإذا كنا نرفض الفكر الدموي والتكفيري، وإذا كنّا ضعفاء عاجزين فماذا نفعل، وهل نترك الشلل والقلق والخمول يضرب جذوره فينا؟ اللَّهم لا!

انهارت الأمة عسكريًّا وسياسيًّا في أوقات مختلفة، ولكن لم يستطع أحد تدميرها حضاريًّا وأخلاقيًّا وإنسانيًّا، فقد بقيت تضخ الخير والإيمان والحضارة في جلسة علم، وموقف حق، ومساعدة محتاج، ومؤسسة وقفية، وسبيل ماء، وتحقيق مسألة، وإكرام جار، وعابر سبيل، وبر والدين، وحنو على رحم وأخت، وضعيف وصغير وبائس، وكَرَم فطري، وإشفاق من معصية اللَّه بنعمه، وبقيت الأمة تتنفس الإسلام

روحًا اجتماعية وتسامحًا وتدينًا فطريًّا لا تعقيد فيه ولا تكفير، وبقيت فطرتها نقية النسب كريمة الأصول لا ترضى الظلم، ولكنها تسلك لدفعه بدل الشتم والصياح الذي عودنا البعض عليه في هذا الزمن الأعجف، والفكر التكفيري الذي ينتسب إليه آخرون، تسلك الصبر والعمل البطيء والإصرار العنيد، وتبث روحها في إتقان عملها وسلامة صدرها وابتداعها أساليب البحث عن البقاء لا في الجحور بل في ساحة مسجد، وشموخ مئذنة، وقدوة من عالم صالح يأبى النفاق، وفي مصلح هنا، ومؤلّف هناك، وصانع وسبّاك وزارع وتاجر أمين وفلاح نشيط، وفي وشوشات مشربية خشبية عتيقة، وعناق سيباط لآخر، ودفء حارة، وهمسات ساقية، واستقامة شباب، وعفة فتيات، وفي فوح زنبقة، وأريج ليمونة شامية تهفو لنخلة في بغداد، وإباء لأهل المغرب قارفه حنين ترعة مصرية، مع طيب أهل السودان، ورقة أهل اليمن، إلى النبع الأول في بطاح مكة معقد الخير والضياء.

ما بين أيدينا أوراق فكر وتربية، شارك المؤلف أمته واجب التفكير في النهوض عبر محافل إعلامية مرموقة، عودة إلى الذات من أجل إيقاظ الوعي والتفكير في المفقود وإحياء للانضباط الشخصي والمبادرة الذاتية، ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١].

الإيمان يرشد إلى الحق فهو كالنور في إيضاح السبيل والمنغمس في الكفر متحير في الظلمة [١].

كتاب إيمان ومسؤولية وخروج على تحويل الإنسان إلى آلة للعلف أو للخلف.

شكرَ اللهُ سعي المؤلف وحيّا ربنا سبحانه الروح الطيبة المبادرة التي تسعى نحو عقل النص وعقل الواقع.

والله من وراء القصد.

علاء الدين آل رشي

* * *

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٨٠/٦).

النمط العزيز

شيئان جوهريان يسيطران على تفكيري وتأملي، هما: التوازن والتكامل.

التكامل يعني: « القبض على رؤية عميقة وشاملة لكل الأشياء التي يجب أن نراها، وبالطريقة التي يجب أن تُرى بها تلك الأشياء ».

أما **التوازن** فيعني: « إعطاء جوانب الحياة وجوانب الشخصية - على وجه الخصوص - حقها من الرعاية والتنمية والاهتمام من غير إفراط في جانب على حساب جانب آخر ».

وربما أمكننا القول: إن امتلاكنا لرؤية حسنة لنوعية التكامل المطلوب هي التي تتحكم في نهاية الأمر بشكل التوازن الذي نسعى إليه. كما أن من الممكن القول: إن عناصر الصورة الذهنية عن (التكامل) قد تختلف من شخص إلى آخر. وقد ينحو بعضها نحو التغيّر، كما ينحو بعضها الآخر نحو الثبات.

في الدائرة الإسلامية نمط من الناس يهتم بصفاء روحه ونقاء نفسه، ومستوى تعبده - على مقدار خبرته - جيد، ولديه طيبة، تتصل في بعض الأحيان بطرق من الغفلة التي تصل إلى حدّ السذاجة. وكثير من هؤلاء - إن لم نقل

أكثرهم - يأخذون عن عابد أو جماعة تقاليد وطرقًا في التعبُّد، ويحفظون عن ظهر قلب مقولات، يسيرون في ظلال دلالاتها وكأنها مفردات دستور، لا يمكن إدخال أي تعديل على أيّة مادة من مواده. ومشكلتهم أنّهم كثيرًا ما يفقدون التوازن، ونصابَ الحد الأدنى من التوزيع لاهتماماتهم وأنشطتهم. وينظرون إلى الأقوال المأثورة عن شيوخهم وأسلافهم على أنها أدوات لفهم كل الأوضاع والتعامل مع تحديات كل العصور!

ويميل هذا النمط من عباد اللّه إلى العزلة الشعورية، ويجدون حالات عظيمة من انشراح الصدر وبرد اليقين، ويملكون طاقة هائلة على البذل والإصرار على الدعوة إلى ما يشعرون أنهم ظفروا به. وتتّسم معاملاتهم بالنعومة واللطف، ويميلون إلى حسن الظن. رؤيتهم للواقع عميقة، ونظرتهم للمستقبل قاصرة ومشوشة. وبينهم وبين التحليل والتفلسف ما يشبه العداوة، لكن لديهم روح متفائلة؛ وكثيرًا ما تكون تطلّعاتهم محدودة. والتدقيق في صفاء العقيدة وصحة التصورات، لا يشكل لديهم هاجسًا. ومعظم هؤلاء عاديون في أعمالهم وإنجازاتهم؛ والناجحون فيهم قليلون كما أن المخفقين منهم ليسوا كثيرين.

في الدائرة الإسلامية نمط ثان من الناس يقف في الجهة المقابلة للنمط الأول مع وجود الكثير من الأشياء المشتركة

بينهما. هذا النمط يحرص حرصًا شديدًا على استقامة تفكيره، ويكثر من النقاش حول ما يعتقد أنه يشكل انحرافًا عن المنهج القويم. يتحدثون باستمرار عن المهم والمهم جدًّا، والخطِر والخطِر جدًّا، ويغرقون في تناول التفاصيل المتعلقة بالأمّة وبالشأن العام. كثيرون من هؤلاء فتحوا على أنفسهم بابًا عريضًا من ممارسة النقد، إنّهم يتحدثون باستمرار عن المصائب والويلات التي حلَّت بالأمة، ويكثرون من المقارنة بين ما لدينا وما لدى الآخرين، وتكون النتيجة في الغالب لصالح الأمم الأخرى، ولاسيما الغربية منها، وكثير من أفراد هذا النمط ناجحون في أعمالهم على نحو مقبول، وهذا يشجعهم على أن يقترحوا على غيرهم المشروعات، ويدلوهم على طرق للارتقاء وآليات للتقدم. يشغلهم المستقبل عن كل شيء وطموحاتهم كبيرة وأحلامهم عريضة. من أكبر همومهم فهْمُ الأمور التي تجعل الناس يعيشون حياتهم وفق تعليمات دينهم.

لكن هذا النمط كثيرًا ما يشكو من برودة الروح وخمود الانفعالات. وهو مع حرصه على استبانة الوجهة وتحديد المسار، إلَّا أنَّه لا يهتم كثيرًا بتوليد (الطاقة) المطلوبة للمضي بهمَّة وعزيمة إلى آخر الطريق. عباداتهم كثيرًا ما تكون عند الحد الأدنى وبعدهم عن الشبه ليس بالكبير. وكثيرًا ما يعانون من تمزُّقات داخلية بسبب المسافة الكبيرة

التي تفصل بين وعيهم ودرجة تألّق إيمانهم.

هذان النمطان رئيسان في الجماهير الملتزمة. وهناك أنماط فرعية تتشعّب من كل واحد منهما.

في الدائرة الإسلامية نمط ثالث يمكن أن نسميه « النمط العزيز » إنه عزيز - نسبيًا - في وجوده، وعزيز أيضًا على قلوبنا. هذا النمط جمع ثلاث صفات أساسية، هي:

- الوعي العميق.
- والإيمان الراسخ.
- والنجاح الباهر.

وهذا شرح موجز لهذه الصفات:

١ - يمتاز هذا النمط بالأصالة الخلقية، حيث السجايا الحميدة عميقة الجذور في النفس، وتجسدها في السلوك يتم بطريقة عفوية ومستمرة. وهو مكين التدين، والإيمان لديه يتجاوز صفاء المعتقد إلى الحيوية والتألق.

إن أفراد هذا النمط يعملون وفق: « ربي، وعبدك »، إن الواحد منهم في نهاره يراقب الله في عمله وجميع أنشطته: هذا العمل يرضي ربي. وهذا العمل يقربني من ربي. هذا العمل لا يرضى عنه ربي. إنَّ صلته بالله تعالى توجّه حركته، وتصوغ مواقفه وعلاقاته. ومن تلك الصلة القدسية يستمد الطاقة على العمل وعلى الصمود في وجه المغريات. أما في

ليله فكثيرًا ما يُردِّد: « عبدك بحاجة إليك، عبدك راجٍ فضلك، عبدك خائف منك، عبدك عبدك... ».

٢ - رسالة هذا النمط في الحياة واضحة إنها العيش للإسلام وبالإسلام. مَن ينتسب إلى هذا النمط يعتقد أن لكلِّ امرئ دينين: دين معلن ظاهر يمنحه نوعًا من التميز والانتماء الشكلي، ودين حقيقي. ودين المرء الحقيقي هو الدين الذي يكرِّس حياته من أجله.

يقرأ هذا النمط الماضي لإصلاح الحاضر، ويتخذ من معطيات الحاضر وقودًا لبلوغ الأهداف العظمى. التفكير لديه إستراتيجي، والرؤية واضحة. وهو مع ميله للإيجابية وتشبعه بروح الرجاء يدرك أعباء المرحلة، ويعرف العلامات الدالة على الطرق المسدودة. يجدِّد معرفته ومفاهيمه، ويتَّهم نفسه، ويمتلك القدرة على السماع والاقتباس.

٣ - هذا النمط ناجح في عمله، متفوق في أدائه، يقدم القدوة والنموذج في الكثير من جوانب شخصياته وسلوكاته. إن لديه إدراكًا عميقًا، بالحاجة إلى تحقيق النجاح الباهر؛ حيث مضى زمان الأشياء العادية، وحيث تتطلب الديون المتأخرة على الأمة مضاعفة الإنتاج وبذل المزيد من الجهد.

هذا النمط جمع - باختصار - بين القوة والأمانة، كما قالت ابنة شعيب: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ

ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦].

ينتسب هذا الطراز من الرجال إلى الإمام الكبير عمر ابن الخطاب ﷺ ويحاول باستمرار إحياء خطه وبعث مسيرته.

وإني لأرجو أن نعمّق دراساتنا المستقبلية حول هذا النمط، كما أرجو أن نجعل الدخول إلى عالمه شيئًا موضع تطلع وتشوق. إنه نمط آسر، ويثير الإعجاب؛ ولمَ لا، وقد اجتمع فيه أفضل ما تفرق في غيره؟!.

* * *

التكامل

إلى أي حد تُسهم الأفكار الجيِّدة في تقدُّم الأمة؟

هذا سؤال طالما طرحته على نفسي. ولم أطرح هذا السؤال إلّا لأنه يراودني في بعض الأحيان نوع من الشك في قيمة ما نقوله ونكتبه وننشره.

إن الذين يقرؤون للكُتَّاب الكبار على نحو دائم لا يأتون من عرض البحر - كما يقولون - وإنما يكونون مُهيَّئين في الأساس للتفاعل مع الطرح الفكري العميق. وبعضهم لديه أفكار كثيرة من جنس الأفكار التي يطلع عليها من جديد.

أما السواد الأعظم من الناس فتجدهم بعيدين عن التجاوب مع الأفكار الجديدة؛ بل يُبدون تجاهها نوعًا من الحرون والممانعة.

إذن هل ما نكتبه هو أشبه بعلاج يتناوله الصحيح، ويُعرض عنه المريض؟ لا أشك أن بعض هذا التشبيه صحيح. لكن يمكن القول أيضًا: إن هناك فئة (رجراجة) تنجذب نحو الأفكار الجيّدة، وتغيِّر بناء عليها شيئًا من سلوكها ومن نظرتها إلى الحياة، لكن هذه الفئة يبدو أنها - مع الأسف - ليست واسعة.

هذا كله يجعلني أقول: إننا معاشر المشتغلين بصناعة الثقافة، ربما كنا مبالغين في تقدير دورنا في نهضة الأمة وإصلاح شأنها. لكن هذا لا يمنع من الاستمرار في العمل، إنما مع ضرورة البحث عن الوسائل والأطر التي تحوّل الأفكار الجيدة من كلام منطقي منمّق إلى تربة خصبة تحتضن الشجرات الباسقة.

قد يصح لنا أن نقول في مقاربة أولية: إن الفكرة تكون كالعاصفة العاتية إذا كانت تلخيصًا لتفاعلات مرحلة كاملة، وتكون أشبه بسفينة عملاقة إذا تبنَّتها دولة. وتكون بمثابة نور متوهِّج إذا تبنَّتها جماعة، وأخذت تربّي أبناءها عليها.

وأقول في مقاربة ثانية: ربما احتاجت كل فكرة من الأفكار الأساسية إلى مؤسسة تنهض إلى تحويلها إلى فعاليات وأنشطة، وتجسّدها في حركة اجتماعية واعية، وتوفر لها إلى جانب ذلك آفاقًا جديدة للنمو والتطور، وتصقلها من خلال النقد البصير.

إذا كانت لدينا فكرة جوهرية في تنمية الإبداع - مثلًا - فإن تأثير هذه الفكرة في إيجاد طليعة مبدعة سيكون قريبًا من الصفر. وسيكون الأمر مختلفًا إذا أُنشأنا بناء على تلك الفكرة مؤسسة لرعاية الموهوبين واكتشاف المواهب.

وإذا كان لدينا أفكار أساسية حول أهمية التربية المبكرة في

تكوين شخصية الطفل، فإن علينا أن ننشئ سلسلة من رياض الأطفال النموذجية التي تتجسد فيها أفكارنا التربوية.

وإذا كنا نعتقد أن لدينا فكرًا دعويًّا وإصلاحيًّا متميزًا ومهمًّا للنهوض بالأمة فإن علينا أن ننشئ قناة فضائية وهكذا...

إن إيجاد أطر تنفيذية لما لدينا من أفكار عظيمة ليس مطلوبًا من أجل تفعيل الأفكار وتحويلها إلى أدوات تطوير للواقع فحسب؛ وإنما هو مطلوب كذلك من أجل تطوير الأفكار نفسها واكتشاف الأجزاء المعطوبة منها، وما هو مستعصٍ على التطبيق، وما هو منتج وجوهري. وهذا الطرح يفتح بابًا عظيمًا من أبواب العمل والخير، ويفتح حقولًا غير محدودة للممارسة والمشاركة في البناء والتنمية.

إن الذين ينتجون الأفكار العظيمة دائمًا قليلون، لكن الذين يملكون الإمكانات لتوظيف الأفكار وتجسيدها في مبادرات وتحركات كبيرة دائمًا موجودون إلى حدود مقبولة وأحيانًا ممتازة.

إن كثيرين منًّا يطلبون من المفكِّر ما لا يقدر عليه وما لا يُحسنه من نشر الفكرة وإقناع الناس بها.. ولا يسألون أنفسهم عمَّا يمكن لهم القيام به تجاه الأفكار التي يؤمنون بأهميتها ومحوريتها في حياة الأمة.

إن التفكير الجيد يتطلب دائمًا نوعًا من التجريد من أجل

اكتشاف المسافة الفاصلة بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، كما يتطلب التحرز من الاندماج في الواقع والغرق في حتمياته ومتطلباته. وهذا كله يجعل المفكر - في الغالب - غير مؤهل لمباشرة العمل الميداني وإدارة المعطيات المتاحة.

الداعية والواعظ والمربي المتحرك في نطاق الشباب، كل هؤلاء لا يرتاحون - في الغالب - للطرح الفكري العميق ولا للتفلسف والتنظير؛ حيث يلمحون في ذلك نوعًا من الجهد غير المسوَّغ؛ بل يرون فيه نوعًا من الصدّ عن التعامل مع الأحداث الجارية وما تتطلبه من رد فعل وموقف محدد.

إن التأثير في المدعوين وإقناعهم بفكرة أو أسلوب أو سلوك يسيطر على نحو كلي على الخطيب والواعظ والمربي. وهو تحت ضغط هذه الرغبة يخل بالموضوعية التي يلح عليها المفكر، ويتجاوز أحيانًا الحقيقة من خلال إضفاء أهمية استثنائية على بعض ما يدعو إليه، ويعظ به. ومن النادر أن تجد مفكرًا ممتازًا يتمكن من صوغ خطاب يهيِّج الجماهير، ويفجِّر العواطف. والخطباء اللامعون لا يكونون في العادة من ذوي الطرح الفكري المتميز. ولكل قاعدة شواذ.

أما المصلح فإن دوره يتجاوز دور الداعية في التبليغ والترغيب بشيء محدد؛ إنه يملك بعض الرؤى والأفكار العميقة، ويحاول أن يتحرك بها، ويشكل بناء عليها وبها

تيارًا إصلاحيًا ذا وجهة خاصة. إنه يحاول أن يكون في آنٍ واحد وفيًّا لريادته الفكرية ووفيًّا لوضعه الحركي والعملي. إنه يفكر فكرًا مؤطرًا بمؤشرات الواقع ومتطلباته. هذا يعني أنه ليس مفكرًا خالصًا ولا واعظًا محضًا. وكثيرًا ما يجد نفسه وقد شرع في اقتطاع أجزاء من الفكر السائد، وغض النظر عن أجزاء أخرى بحسب مقتضيات النجاح في حركته الاجتماعية. وهذا كله يجعل منه نقطة التقاء، ومركز تجسيد للعلاقة بين المفكرين والدعاة والمختصين والعامة. لكن مشكلة المصلح أنه يهتم بالأفكار الأساسية، ويزهد بالتفاصيل والأفكار الجزئية؛ وهذا بالضبط ما يجعل مقولاته الإصلاحية تفقد زخمها بعد مدة بسبب افتقارها إلى التجديد والذي لا يأتي إلّا من الحفر المعرفي والنحت الفكري المستمر.

إن الأمة بحاجة إلى الداعية والمصلح والمفكر والمتخصص، وسيؤدي كل واحد منهم واجبه بطريقة نافعة، شريطة أن يعي كل واحد من هؤلاء طبيعة دوره وحدود ذلك الدور، وشريطة أن يصغي إلى ما لدى غيره، ويحاول الاستفادة منه من أجل تطوير ما لديه. وهذا يحتاج إلى التخلص من عقدة التفرّد والتحلّي بروح التكامل.

* * *

إيقاظ الوعي

من الثابت أن من أهم مشكلات العقل البشري ذلك (الإلف) الذي يحدث بين عقولنا وبين الأشياء التي نحتك بها على نحو مستمر. إن كثرة الاحتكاك، تجعلنا نتعوّد نوعًا من (اللامبالاة) في فهم عجائب الخلق وأسرار الوجود. وهذا يدفع نحو الكف عن البحث والتساؤل ومحاولة فهم أعماق الأحداث والأشياء. وهذا الإعراض يشكل أهم مصدر من مصادر تبلد الذهن وتباطؤ حركة الفكر. ولهذا فإننا نجد الكثير من الآيات القرآنية التي تحض الناس على تجاوز النظر السطحي والقريب للأشياء إلى محاولة فهم الأسباب والجذور والدقائق؛ وذلك حتى يتعرف الإنسان أكثر فأكثر ذاته وقدرة الخالق - سبحانه - كما يتعرف طبيعة المشكلات التي يعاني منها، والمآلات التي يمكن أن تصير إليها.

يقول - سبحانه -: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

[آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

كان الحسن البصري رحمه الله يعتقد أن تفكُّر ساعة في خلق الله وآلائه يعدل عبادة ليلة، لأن التفكُّر يساعد المرء على استعادة الموقف الذي عليه أن يتخذه مما حوله، كما يساعده على تجديد رؤاه وطروحاته وأولوياته.

إنَّه لمن الواضح أن معظم الناس يَقبلون كثيرًا من العقائد والأفكار والنظم والعادات لا لشيء سوى أنَّهم يعيشون في بيئة تتقبَّلها وتحتفي بها. كما أن معظم الناس يقفون موقفًا سلبيًا من كل ذلك بسبب موقف من يحيطون بهم، ومن هنا جاءت الدعوة القرآنية إلى ممارسة التفكير والتأمل من أجل عدم اندماج الوعي الخاص في الوعي العام. يقول ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦].

إن اللّه - تعالى - يطلب من نبيّه أن يدعو أولئك المكذِّبين المعاندين إلى أن يسعوا إلى تحرِّي الحق عن طريق التفكُّر واحدًا واحدًا أو اثنين اثنين ليُظهر لهم أن من جاء بهذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون به مسٌّ من جنون.

إن العقل حتى يتحرر، وإن الوعي حتى يستيقظ، يحتاجان منا أن نسير في المكان تارة وفي الزمان تارة أخرى لنرى كيف تكونت القضايا والمشكلات، وكيف قامت

المذاهب والمدارس والتيارات. وهذا السير في غاية الأهمية؛ لأن الذي ثبت أننا لا نستطيع أن نفهم أي علم من العلوم وأي ظاهرة من الظواهر على نحو عميق ودقيق من غير أن نفهم بدايات التشكُّل والمنعطفات والأطوار التي مرَّت بها تلك الظاهرة أو ذلك العلم. فكم من ظواهر أثارت المخاوف عند ظهورها الأول، ثم نسيها الناس، ونسوا مخاطرها أو تكيَّفوا معها. وكم من كتاب نال شهرة لا يستحقها. وكم من قول ثار حوله جدل عريض، ثم حصل اتفاق عليه. وكم من شيء زهد به السابقون واحتفل به اللاحقون!...

إن (تاريخ العلوم) شيء نفيس ومهم دائمًا، وإنَّه لمن المؤسف أننا لا نوليه القدر الكافي من العناية؛ ولذلك فإن فهمنا لكثير من المذاهب وكثير من الأوضاع والمشكلات يظل غير عميق وغير شامل.

ستظل عقولنا مرتبكة في فهم الواقع واستيعابه على النحو المطلوب؛ لأننا قصرنا في قراءة مُكوِّنات هذا الواقع والتي يعود بعضها إلى عشرات بل مئات السنين الماضية. وسوف نواجه الارتباك ذاته عند التخطيط للمستقبل؛ لأن من يعجز عن فهم واقعه يعجز عن اتخاذ القرارات الجيدة والمطلوبة لتطوير هذا الواقع. وليس التخطيط للمستقبل شيئًا سوى التمكن من ترشيد قرارات الحاضر والبناء على المعرفة التي توافرت عن معطياته.

ومن وجه آخر فإن وعينا كثيرًا ما يقع في الارتباك نتيجة الأسلوب الذي نتَّبعه في تكوين الصور الذهنية عن أنفسنا وعن العالم من حولنا.

إن الوعي - وكذلك الطبيعة - يكره الفراغ، ولهذا فإننا نسارع إلى بناء صور ذهنية وانطباعات نفسية راسخة عن الكثير الكثير من الأشخاص والأفكار والقضايا قبل أن نستكمل الحد الأدنى من المعطيات والمعلومات والدلالات المطلوبة لذلك.

هذا رجل حاول حلَّ معضلة من المعضلات في إدارته، فلم يستطع وبعد تكرار المحاولة تيقَّن أنه لا فائدة. وهكذا تشكَّل لديه انطباع سلبي ويائس. ويأتي زميل له، ويستشيره في إمكانية معالجة تلك المعضلة، وأنه سيحاول حلَّها، لعل وعسى... ويكون الموقف هو نصيحته بألّا يضيع وقته وجهده فيما لا أمل فيه.

وكان الموقف الصحيح ألّا يشكّل صورة نهائية عن أمر غير نهائي، وأن يجلس مع زميله لمراجعة خطوات المعالجة التي اتّبعها؛ فالخلل غالبًا فيها. ومن خلال المراجعة قد تقدح في الذهن أفكار أو إجراءات جديدة وإبداعية، تساعد على حل المشكلة، أو تخفف من غلوائها على الأقل.

وهذا رجل أقرض رجلًا من معارفه مبلغًا من المال، وضرب

لسداده أجلًا. وبسبب ظروف صعبة واستثنائية لم يتمكن المقترض من رد المبلغ في الوقت المحدد. فما كان من هذا المقرض إلّا أن شرع في نصيحة من حوله بعدم إقراض فلان؛ لأنّه رجل مماطل، وربما كان ممن تموت لديه الحقوق. مع أن الواقع قد لا يكون كذلك، فكم من رجل حريص على سداد ديونه وهو يفعل ذلك بصورة دائمة، ولكن لأسباب خارجة عن سيطرته لم يتمكن في إحدى المرات من القيام بذلك؛ ومن ثم فإن وصمه بالمماطلة والاستهانة بحقوق الناس، يعدّ بعيدًا عن الواقع والإنصاف.

إن الوعي حين يواجه مشكلة من المشكلات أو خيارًا من الخيارات، فإنّه يعود إلى مخزونه الذاتي من المعرفة والخبرة، فإذا لم يجد ما يسعفه في بلورة الجواب أو الحل أو الموقف لجأ إلى مخزون الخبرة المتوافر لدى المحيط الذي يعيش فيه أو ما يسمى بمخزون الخبرة الجماعية. فإن لم يجد، فإنّه يلجأ إلى إبداع جواب أفق إمكاناته الذاتية.

وحين يكون البناء المنهجي لديه غير مكتمل، أو يكون مشوهًا، فإن المتوقع آنذاك أن يقوم بصياغة أجوبة وحلول مشوبة بالخرافة وبالأخيلة البعيدة جدًّا عن حدود الخبرة المتاحة وحدود المنطق والمعقول. وهذا هو الفخ الذي يقع فيه معظم أولئك الذين يعيشون في بيئات يخيم عليها الجهل والفقر الثقافي.

إنه لشيء سيئ أن يجد الواحد منا نفسه مقيمًا في أرض الخيارات الصعبة؛ حيث يكون الاستسلام للوعي الجماعي خطرًا، كما يكون الاعتماد على الإبداع الذاتي مخاطرة. وليس هناك من حل سوى إيقاظ الوعي وتنمية الحسّ النقدي وتحرير العقل من قيود الجهل والركون إلى السهل والجاهز.

عملية التحرُّر العقلي عملية شاقة ومديدة، لكنها عظيمة ونبيلة. وهي مشروطة دائمًا بقدرة الوعي على مراجعة تاريخه والتفوق على ذاته.

* * *

التوازن في شخصية المسلم

نستطيع أن نقول دون حرج: إنَّ الميل إلى التطرف أصل في حياة الناس؛ بل يكاد يكون شيئًا مغروسًا في التراث الجيني للبشرية. والشخص الذي يرغب في أن يحيا حياة متوازنة أشبه بالذي يسير فوق حبل مشدود؛ إن عليه أن يحرص على ألا يسقط ذات اليمين أو ذات الشمال. وهكذا الإنسان المسلم مهدَّد دائمًا أن يجنح نحو إفراط أو تفريط، أو أن يعتني بأشياء على حساب أشياء أخرى.

التوازن شيء جميل؛ لأنه يرمز إلى الكمال. ومن الملاحظ أن الشيء ينتزع الإعجاب إذا اجتمع فيه ما تفرق في غيره. وهو إلى جانب هذا أحد مؤشرات الالتزام المهمة، فتكاليف الإسلام كثيرة، والشخص المتوازن يحاول أن يقوم بها جميعًا.

ويمكن القول: إن الذي يؤمِّن نصاب التوازن في حياتنا شيئان: واجباتنا وأهدافنا. وليس المقصود بالواجب هنا الواجب الشرعي، ولكن الواجب الحضاري، وكل ما نشعر أنه مطلوب منّا ولو كان نافلة من النوافل.

إن الالتزام بالواجبات والآداب الشرعية يجعل حياتنا في السياق الصحيح الذي ينسجم مع عقيدتنا، وينسجم كذلك مع الغاية النهائية التي نسعى إلى بلوغها، وهي الفوز برضوان

الله - تعالى - ونعيم الجنة الأبدي.

أما الالتزام بأهدافنا في أعمالنا وإنجازاتنا ومسؤولياتنا فإنه يساعدنا على حشد طاقاتنا، كما يجعلنا نضغط على رغباتنا وأوقاتنا؛ لنبدو في نهاية الأمر منطقيّين في سلوكاتنا ومنسجمين مع أنفسنا.

هناك شيئان آخران أيضًا يساعدان على تحقيق التوازن:

الأول: **هو الالتزام بالسنة.**

والثاني: **هو البعد عن الغلو والتنطع.**

إن اتّباع السنة في أكبر قدر ممكن من تفصيلاتها يعني الانتباه الدائم لحقوق الله - تعالى - وحقوق الأهل والأقرباء والجيران وعامة المسلمين. كما أن السنة تساعد على تحقيق الانسجام الاجتماعي من خلال تأمينها نوعًا من الوحدة الشعورية بين المسلمين، وتحقّق الألفة من خلال ما تشيعه من التشابه في المظهر والسلوك. والأهم من كل هذا هو أن المسلم حين يتمسّك بسنة النبيّ ﷺ يكون قد أقام حول نفسه خط دفاع أولي يحول بينه وبين الانحدار نحو التفريط والتقصير في الفرائض.

أما البُعد عن التنطُّع والغلو والحرفية في رؤية الأشياء فإنه يحقّق التوازن من جهة إبعادنا عن الإفراط والذي يعني دائمًا إعطاء شيءٍ ما من الاهتمام والعناية والوقت والجهد... أكثر

ممّا يستحقّه، وهذا غالبًا ما يكون على حساب شيء آخر. وقد قال ﷺ: « **هلك المُتَنَطِّعون** » ثلاثًا، والمتنطِّعون: هم المتشدِّدون في غير موضع تشدُّد. وحين زار سلمان الفارسي أبا الدرداء رضي الله عنهما ورأى من إعراضه عن الدنيا وزينتها - في خبر معروف - قال سلمان لأبي الدرداء: « إن لربك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا، وإن لأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه »، وحين ذُكر قولُ سلمان للنبي ﷺ قال: « **صدق سلمان** ».

وإذا كان من غير الممكن الإتيان على كل جوانب التوازن في شخصية المسلم من خلال هذه الكلمات، فلنذكر ما نعتقد أنه مهم منها:

١ - التوازن بين الفلاح والنجاح:

إن الذي يطّلع على الأدبيات التي سادت عبر القرون الخمسة الماضية يجد أن اهتمام معظم المسلمين ببلورة شروط النجاح الدنيوي كان ضعيفًا للغاية. وكان اهتمامهم أفضل بمسائل الفلاح الأخروي. وهذا أدّى إلى تهميش الأمة وضعفها بسبب ضعف مكوناتها الأساسية وهي الأفراد. وربما نظر الناس في تلك المراحل إلى أن الحديث عن الإنجاز العالي والتفوّق في الإدارة وغيره يشكّل نوعًا من الانغماس في الشأن الدنيوي. والإخفاق في إدارة شؤون المعاش لا بدّ

في النهاية أن ينعكس على مستوى التديُّن لدى الفرد ولدى الأمّة سواء بسواء. واليوم تنشر العولمة وعلى أوسع نطاق مفاهيم القوة والغلبة والتفوق والنجاح، وتلحّ في مساعيها على جعل الناس يهتمون بالمادة على حساب المعنى، وبالعاجل على حساب الآجل، وتلقى تجاوبًا غير قليل في أوساط الشباب والناشئة.

إن الحضارة الغربية تحفِّز معاني القوة على حساب معاني الرحمة، ومعاني الأخذ على حساب معاني العطاء، وقد صار العالم الغربي يستوحي من تراثه القديم روح البطل المقدام الذي يغزو، وينهب ويسلب، وينفق من غير حساب، وقد كان من قبل يستوحي من النصرانية روح الشهيد الذي يضحّي بنفسه من أجل غيره. وقد ترتّب على كل هذا اتجاه كثير من الناس اليوم؛ ولا سيما الشباب إلى النجاح الدنيوي والفوز بالثروة والمنصب والجاه والنفوذ والجاذبية الاجتماعية على أنها أشياء تستحق فعلًا التضحية، وأن يكرّس المرء حياته من أجلها. وكان هذا على حساب الاهتمام بالفلاح والقيام بحقوق العبودية للّه تعالى والاهتمام بالفوز الأُخروي.

نقطة التوازن في هذه المسألة قد لا تكون في العمل على إعادة توزيع الاهتمام بين الفلاح والنجاح؛ فهذه عملية يعسر ضبطها، وإنما يكون في الالتزام بأن تكون مساعينا لتحقيق الفوز الدنيوي مرتبطة على نحوٍ ما بحرصنا ومساعينا لتحقيق

الفوز الأخروي. وذلك يتم من خلال استحضار النية الصالحة والحسنة عند مباشرة المباحات، وعند محاولة الحصول على كل ما هو دنيوي، من مثل كسب المال والحصول على منصب أو وظيفة. ولا تكفي النية الحسنة في تحقيق التوازن المطلوب بل لا بدَّ من سلوك الطرق المشروعة للحصول على ما نريد الحصول عليه من أمور الدنيا.

إن هذه الحياة في الرؤية الإسلامية حياة مؤقتة ومحدودة وإن كل النجاحات التي نصيبها فيها بالتالي هي نجاحات صغيرة ومؤقتة، وإن أي نجاح يتم بطريقة غير مشروعة هو نجاح وهمي، وقد يكون عبارة عن فرصة أو مناسبة لتحمُّل المزيد من الآثام والأوزار.

إن حياتنا على هذه الأرض ستكون لها أعظم القيمة إذا استطعنا أن نجعل من حركتنا اليومية أسبابًا تقرِّبنا من اللَّه - تعالى - ونيل مرضاته، وهذا ممكن إذا حاولنا وضع إرادتنا وقدراتنا في إطار العبودية للَّه تعالى؛ كما قال - جلَّ وعلا -: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

٢ - التوازن بين العقل والعلم:

دار جدلٌ قديم بين كثير من الناس في المقارنة بين العلم والعقل، فمنهم من فضّل العلم، ومنهم من فضَّل العقل.

ولا أظن أن ذلك الجدل سوف ينتهي في يوم من الأيام بسبب غموض مجالات عمل العقل وغموض نوعية العلاقة التي تربط العقل بالخبرة.

وإذا تأمّلنا في واقعنا وجدنا صنفين من الناس يحتاجون إلى استعادة التوازن في هذه المسألة:

صنف يبذل جهده في القراءة وجمع المعرفة، وقد يقوم بنقلها وتعليمها للناس، لكنّه لا يحاول أبدًا أن يضيف شيئًا لما يحمل من علم، أي لا يقوم بأي دور نقدي تجاه ما يحفظ وينقل.

وقد ذكروا أن تلميذًا ظلّ يتردد على أحد الأساتذة عشر سنوات ثم توقّف عن ذلك، وصار يقرأ على أستاذ آخر، فغضب الأستاذ الأول من ذلك التحوُّل، وعتب عليه، وسأله عن أسبابه، فقال التلميذ: صحبتك عشر سنين، ولم أسمع منك إلّا قولك: قال فلان، وقال فلان، ولم تُسمعنا ما الذي تقوله أنت: قول فلان وفلان أجده في الكتب والمراجع، لكن أريد أستاذًا أعرف رأيه في قول فلان وقول فلان!.

شيء أساسي أن نحفظ ونطلع، لكن من المهم أيضًا أن نمتلك الوعي الجيد بما نحفظ ونحمل من علم. إن من المهم على هذا الصعيد أن نعرف تاريخ العلم الذي نحمله؛ لأننا لا نستطيع أن نسبر أغواره دون أن نعرف المنعطفات التي مرَّ

بها، ودون أن نعرف المشكلات التي واجهها والفرص التي تنتظره، وآفاق تطويره وتنميته.

ومن المؤسف في هذا السياق أننا لا نملك في طول عالمنا الإسلامي وعرضه أية جامعة متخصصة في تاريخ العلوم؛ بل قد لا نملك أية كلية تفتخر بأنها تقدِّم شيئًا متميزًا في هذا الحقل المعرفي الخطير!.

إذن لا بدّ من إحداث توازن على الصعيد الشخصي داخل البنية المعرفية بين الحفظ وبين فهم ما نحفظ، ونقده، والاجتهاد فيه، والإضافة إليه.

أما الصنف الثاني من الناس فإنه على العكس من ذلك، إنه يستخدم عقله على نحو نشط، ويحاول أن يقول في كل شيء قولًا، لكن المعرفة التي لديه والخبرة التي في حوزته محدودة جدًّا. ويكثر وجود هذا الصنف في البيئات التي يغلب عليها طابع الثقافة الشفهية، وهي بيئات تنتشر فيها الأمية عادة انتشارًا واسعًا.

أين – يا ترى – تكمن نقطة التوازن بين العلم والعقل؟

لا أعتقد أننا نستطيع وضع السكين على المفصل في أمر شديد الالتباس كهذا الأمر، لكن يمكن أن نقارب ما نريد.

في ظني أن نقطة التوازن تلك تكمن في معرفة دور كل من العقل والعلم في تكوين الحكم العقلي، وفهم ما يمكن أن

يكون لكل منهما من مجالات. وأعتقد في هذا الإطار أن اللّٰه - جلّ وعلا - خلق العقل البشري ليعمل ضمن أطر ووفق مبادئ وأصول محددة، وهذه يوفرها الوحي. وحين يستدبر العقل الوحي فإنه يُظهر الكثير من العجز والكثير من الاضطراب. وحين ينشط في إطار الكليات فإنه يفتقر إلى المعرفة المتخصصة. وهو في هذا أشبه بالرحى؛ فكما أن إدارة الرحى تكون غير ذات جدوى إذا لم نضع فيها شيئًا من الحبوب، فكذلك العقل لا ينتج من خلال تشغيله أي شيء ذا قيمة من غير تزويده بالمعارف والمعلومات والخبرات المطلوبة. وهكذا فإن نقطة التوازن في العلاقة بين العقل والعلم تتمثل في التسليم للرحى في الأمور الكلية والغيبية، وفي توفير الكثير من المعلومات الدقيقة والشاملة كي يتمكن العقل من إعادة تنظيمها ووضعها في سياق منطقي جديد، واستثمارها من أجل الحصول على أشياء كانت مجهولة قبل عملية التفكير.

٣ - التوازن في التعامل مع الأزمنة:

نحن باعتبارنا شيئًا من الماضي، فإنَّ جذورنا الفكرية والنفسية وموروثاتنا الجينية كلها ممتدة في الماضي؛ ولهذا فإن المرء لو ترك نفسه وشأنها فإنه سيجدها نزَّاعة إلى الماضي غارقة فيه. وهذا حاصل بالنسبة إلى كثيرين منا، ومن

المؤسف أن بعض المسلمين يحتفي بالاستنباط من التاريخ، ويسعى إلى استخراج النماذج منه أكثر من سعيه إلى فهم مقاصد المنهج الرباني الأقوم. وكثيرًا ما يغيب عن البال أن الاعتماد على التاريخ في فهم الواقع أو تسويغه أو توجيهه كثيرًا ما يشكّل عامل انقسام وتهديد لوحدة الأمة. والمنهج القرآني في التعامل مع التاريخ فريد، فهو يُعرض عن التفاصيل، ويركز على مواطن العظة والعبرة. وحبذا لو وقفنا عند هذا الحد.

إن من المهم أن ندرك أن طاقة وعينا على الاستحضار والاستيعاب محدودة، وحين نصرفه إلى الماضي فإن تعامله مع الحاضر ومع المستقبل سيكون قاصرًا. كلما اتضحت معالم المنهج الرباني الأرشد في أذهاننا وأنظارنا كانت حاجتنا إلى الاستعانة بالتاريخ أقل، والعكس صحيح. ويصح لنا أن نتخذ من هذا مؤشرًا ومعيارًا.

حتى لا يختل توازننا فإن علينا أن نصرف القليل من اهتمامنا بالماضي، ونوجّه الباقي للحاضر والمستقبل. الأمة تعاني من مشكلات كثيرة على المستوى الداخلي وعلى مستوى علاقاتها. ولسنا في حاجة في هذا المقام إلى الحديث عن الفقر والمرض والجهل والتشرذم والاستبداد والظلم والغثائية والتبعية... فقد تحدث المفكرون والمصلحون في هذه الشؤون بما فيه الكفاية، لكن علينا أن نبدع في صياغة

المناهج والأساليب والأدوات التي تساعدنا في اجتراح الواقع والقبض على المعطيات الحاضرة؛ وليس هذا بالأمر اليسير نظرًا للطبيعة الزئبقية والهلامية للواقع. وليس المطلوب منا حتى نتعامل مع الأزمنة بتوازن واعتدال أن نسعى إلى توزيع اهتماماتنا على نحو معين، وإنما المطلوب أيضًا أن نسلك المسلك المتوازن على صعيدنا الشخصي؛ حيث إن هناك كثيرًا من المسلمين يقعون في أشكال من الخلل؛ فهناك - مثلًا - من يعيش في ضنك وتقتير بحجة أنه يوفر المال لمواجهة أزمات أو عوارض المستقبل. والغريب أن منًا من يفعل ذلك وهو في سن السبعين.

ولست أدري أي مستقبل على هذه الأرض ينتظر أو ينتظره ابن السبعين!! وهناك من يعيش حياته بالطول والعرض، يعبُّ من الملذات مباحها ومحرمها غير آبه بما يجره عليه ذلك من الأمراض والعلل المهلكة، إنه ينظر فقط إلى الساعة التي يعيش فيها وينظر إلى ما بعدها باستخفاف تام!

وأود في هذا السياق أن أشير إلى النقاط الثلاث الآتية:

● لا ريب أن الإنسان كلما ارتقى صارت قدرته على التضحية بالعاجل من أجل الآجل أكبر وأعظم. وعلى هذا فالمسلم الملتزم يحمل سمات حضارية كبيرة. وعدم القدرة على تأجيل بعض الرغبات يؤشِّر دائمًا إلى الوهن والتأزم؛ ويمكن أن

نتخذ من هذا المفهوم مجسًّا لمعرفة أحوالنا الشخصية.

• على الواحد منا أن يهتم بحاضره على مستوى الفهم وعلى مستوى الاستثمار والانتفاع وعلى مستوى الاستمتاع أيضًا، وليس من الحكمة في شيء أن يعيش المرء تعيسًا؛ لأنه اتخذ من السعادة هدفًا يطارده مدى الحياة دون أن يلحق به. ليكن تمتعنا بالحياة محكومًا دائمًا بإمكانية الاستمرار وهذا لا يكون إلّا إذا أخذنا من الحاضر لأنفسنا باعتدال وتوازن.

• إن المستقبل يولد من رحم الحاضر، وإن زماننا سريع التغيُّر والتقلُّب والتطوُّر، وإن استشراف المستقبل والإعداد له يجب أن يتم من أفق تحسين قرارات الحاضر؛ إذ كلما كانت قراراتنا في التعامل مع واقعنا أكثر رشدًا وأكثر حكمة، توقَّعنا بإذن اللّه - تعالى - مستقبلًا أكثر أمنًا وازدهارًا.

إن التغيّرات السريعة والتعقيدات الكثيرة التي تميّز عصرنا من غيره، تجعل أي توازن نصل إليه مهدَّدًا بالزوال، مما يعني أن البحث عن التوازن في كل جوانب حياتنا يجب أن يشكّل العمل الذي لا نمل من تكراره.

* * *

التسامح: الاستدراك على القصور

استقر في الخبرة البشرية أن الحياة الاجتماعية لا تستقيم دون قيام كل واحد من الناس بتحديد المجال الخاص به والذي يجد فيه ذاته، ويدافع من خلال الدفاع عنه عن كيانه ومصالحه. وربما كان هذا المستخلَص الثقافي نابعًا من مستخلص آخر، هو أن طبيعة اجتماع الناس بعضهم مع بعض، تولد التوترات والمنازعات بسبب اختلاف الأفهام والأمزجة والمصالح... ومن هنا فإن رسم المجال الخاص على كافة الصُعد والمستويات، يساعد على توفير أساس لاحترام الحقوق والواجبات، وتوضيح ما هو مجال للنفوذ الشخصي، وما هو من قبيل ما هو متاح للتداول والاستخدام العام.

ما لا يستطيع بنو آدم الفكاك منه هو « القصور الذاتي » الذي يطبع كل منجزاتهم، ويولّد لهم بالتالي ما لا يحصى من الالتباسات والإشكالات. ومن هنا نشأت فكرة (الاستدراك) على الأعمال السابقة ومحاولة إصلاح ما يمكن إصلاحه في الكثير من الشؤون المختلفة.

أعمال البر والإحسان تشكّل نوعًا من الاستدراك لقصور النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية؛ إنها كرة أخرى على صعيد استعادة أكبر قدر ممكن من العدالة الاجتماعية المنقوصة.

التسامح والذي يعني التساهل واللين في التعامل مع الآخرين وفي رؤية الأحداث والمواقف، هو الآخر يشكل نوعًا من الاستدراك؛ إنه استدراك على قصور نظم الدلالة والفهم والتفسير، واستدراك على قصور التعريفات، وغموض المصطلحات، واستدراك على القصور في تحديد المفاصل في كل الأشياء ذات الأوساط المتغيرة.

من هذا المنطلق فإن التسامح لا يعبر عن النبل والكرم الذاتي بمقدار تعبيره عن الحاجة والضرورة. والمواقف التي ينقصها التسامح والتنازل والملاطفة، لا تفقد شيئًا كماليًا من قبيل الزخرفة، وإنما تفقد شيئًا بنيويًا، لا يشعر بالاستغناء عنه إلّا من أصيب بقصر النظر وفجاجة الإدراك!

إن الإحساس المترهِّل تجاه قضية التسامح نابع من الظن بأن التسامح عبارة عن تبرع نَجودُ به في حالة التعامل مع أشخاص أشرار، أو التعامل مع مواقف عدوانية، أو مواقف تفتقر إلى اللباقة أو الكياسة الاجتماعية. وأعتقد أنه قد آن الأوان لتغيير هذه النظرة، والصيرورة إلى رؤية تجعل من التسامح أمارة على وضع الأمور في نصابها وعلى السير في الاتجاه الصحيح. **ولعلي أقف مع مسألة التسامح الوقفات الآتية:**

- لا نستطيع أن نتعلم (التسامح) من خلال قراءة كتاب أو سماع محاضرة. كما أن التسامح لا يشكل

مجموعة مواد نضعها في مقدمة دستور ونحاول التقيّد بها... إنه شيء أكبر من ذلك وأعمق.

إن التسامح شيء يسري في أعماق نظم التفكير والتعبير السويِّ، وشيء نتعلمه بطريقة لا واعية من خلال العيش في بيئة ثقافية تنظر باحترام وتقدير إلى الظروف الصعبة التي يمرُّ بها الآخرون، كما تأخذ بعين الاعتبار طبيعة المشكلات التي تخترق نظم التواصل الاجتماعي ونظم إدراك الأشياء والتعبير عن الذات والحقوق والرغبات... ومن هنا فإن التحدِّي الذي يواجهنا هو النجاح في تأسيس تقاليد ثقافية تجعل من التسامح أسلوب حياة.

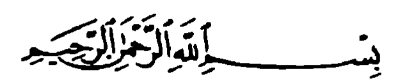
الإسلام حدد لنا المنطلقات، وأرسى لنا القواعد التي تمكّننا من العمل على هذا الصعيد بكفاءة، وذلك على مستوى الأحكام، وعلى مستوى الآداب. ومن الآداب والتوجيهات والأحكام والتعليمات تتكون البيئة المتسامحة التي تتنفس فيها الأجيال الجديدة.

على صعيد التوجيهات والآداب نجد العديد من النصوص التي تؤسس لأرضية مشتركة يقف عليها كل المسلمين، سواء أكانوا من الملتزمين بتعاليم الإسلام أم كانوا من المفرطين ببعضها أو بكثير منها. ومن تلك النصوص قوله - سبحانه -: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ

عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣٢، ٣٣].

إنّ من زادت سيئاته عن حسناته، ومن استوت سيئاته مع حسناته، ومن زادت حسناته عن سيئاته، إن أولئك جميعًا ممّن أورثهم اللّه الكتاب، واصطفاهم على غيرهم من الناس بما هداهم له من التوحيد والإيمان. وفي هذا مِن جمع كلمة المسلمين وقطع أسباب الخصام بينهم ما لا يخفى. ومن وجه آخر فإن القرآن الكريم يغني روح التسامح من خلال توجيه المسلم إلى التخلُّق بخُلُق الصفح، ومقابلة السيئة بالحسنة، كما قال - سبحانه -: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

إن دفع العدوان بالإحسان ومقابلة الإساءة بالحلم من الأمور الجوهرية في توليد المشاعر الجميلة؛ حيث يتحول المعادي إلى صديق حميم. ونجد في الحقيقة الكثير من الآداب والأخلاق التي تحول بين أبناء الأمة الواحدة وبين الانجرار إلى الاحتراب والاقتتال الداخلي، وذلك بسبب ما تشيعه من خلق التحمل والتنازل، وتقدير مشاعر الآخرين وظروفهم وطريقة فهمهم للأشياء.



ومن تلك الآداب والأخلاق:

١ - تحريم الغيبة والنميمة وشهادة الزور.

٢ - إشاعة التحابب والتوادد بين الناس.

٣ - الإرشاد إلى التيسير والتبشير والابتعاد عن التنفير والتعسير.

٤ - الحث على كظم الغيظ ومعالجة الغضب.

٥ - حفظ الحقوق المالية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل.

٦ - النهي عن الحسد والتجسُّس.

٧ - الأمر بالرفق في الأمور كلها.

٨ - النهي عن الغمز واللمز والسخرية.

٩ - الأمر بإصلاح ذات البين عند وقوع خلاف.

١٠ - إشاعة الخير ومحاصرة الشر بالحكمة والموعظة الحسنة.

١١ - التماس العذر للمخطئ، وحمل الكلام الذي لا يعجبنا على أحسن الوجوه.

١٢ - الأمر بالعدل عند الحكم.

إنّ التحلّي بنصف هذه الآداب والامتثال للجوهري من هذه التوجيهات كافٍ لبناء أجواء التسامح والتعاطف والتعاذر في المجتمعات الإسلامية، وهذا ما تدل عليه شواهد

التاريخ ودلالات الحاضر.

أما على مستوى الأحكام فليس في شريعة الإسلام ما يشق اعتقاده أو عمله فالتكليف دائمًا ضمن الوسع والطاقة، وهناك مبدأ عام يسري في كل التكاليف، وهو رفع الحرج، كما أن وجود المشقة كثيرًا ما يكون سببًا في وجود الرخصة على ما هو معلوم ومشهور.

وهناك إلى جانب هذا احتياط شديد في مسألة إقامة الحدود. ومبدأ الستر على المسلمين مبدأ واسع التطبيق، كما أن التوبة والاستغفار باب واسع من أبواب التسامح والسهولة.

● إن كثيرًا من الأحداث التي تقع هنا وهناك، يفتقر إلى التسامح بسبب العزلة الشعورية القائمة بين أصحاب الأديان والمذاهب والاتجاهات المتباينة، وبسبب وجود الشك وعدم الاطمئنان وعدم الثقة؛ مما يحوِّل الناس المختلفين إلى كتل بشرية صلدة، ليس لها همٌّ سوى الخصومة والغلبة وليِّ الذراع... ومن هنا فإن القرآن قد وجَّه المسلمين إلى معاملة غير المسلمين بالبر والقسط والإحسان ما داموا لا يحاربون الإسلام، على نحو ما نجده في قوله - سبحانه -: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٧ - ٩].

ويقدم النبي ﷺ نموذجًا شديد الوضوح في التعامل مع أهل الكتاب؛ فقد أخرج البخاري (١) أن رسول الله ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام استلفه لأهله منه.

وعند البخاري (٢) أيضًا أنه كان ﷺ يزور غلامًا يهوديًا مرض في المدينة، وكان ذلك الغلام يخدم النبي ﷺ وزاره مرة وقد مرض الغلام مرض الموت، فدعاه إلى الإسلام ليشفع له يوم القيامة. فنظر الفتى إلى والده، كأنه يستأذنه، فقال له والده: أَطِعْ أبا القاسم. فأسلم الغلام قبل أن يموت، وفرح بذلك رسول الله فرحًا شديدًا، وتهلّل وجهه كأنه البدر.

وحين مرّت جنازة ليهودي وقف رسول الله ﷺ ووقف معه الصحابة، ثم قال أحدهم: إنها جنازة يهودي - مستكثرًا وقوفه لها ولا سيما أن اليهود حاولوا اغتياله ووقفوا مع قريش يوم الخندق -.. فرد ﷺ على الصحابي قائلًا: « **أليست نفسًا** » (٣)؟!.

---

(١) البخاري، رقم (٦٠٩٥)، وهو في (الشفا) للقاضي عياض (١/١١٢).

(٢) البخاري، رقم (٥٣٣٢).

(٣) البخاري، رقم (١٢٥٠).

وتزوج النبي ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب زعيم بني النضير، وهم يهود كانوا قد سكنوا المدينة.

- إن هذه المواقف وأمثالها تدل دلالة واضحة على أن الإسلام دين يؤسس للتعايش السلمي بين البشر، ويؤكد أسباب التفاهم ولا سيما بين أبناء الوطن الواحد ولو اختلفت مشاربهم ومذاهبهم، فهناك شيء مشترك تجب المحافظة عليه، وهناك مصير مشترك يجب الاهتمام به.

● حين نقف موقفًا متسامحًا، فإننا نشعر أننا ضعفاء، ونشعر أننا نقف على أرض هشة، كما أننا نسمح للآخرين أن ينظروا إلى تسامحنا على أنه نوع من الضعف أو الخوف أو عدم الاهتمام. كما أن التسامح قد يؤدي إلى بروز الفرق الشاذة والأفكار المنحرفة، ويشجع بعض الناس على الخروج على الإجماع الثقافي إلى حد وجود مواقف تقترب من الخيانة للهوية. كل هذا متوقع الحدوث؛ بل كثيرًا ما يحدث.

هذه المخاوف تشكل في الحقيقة حافزًا من أقوى الحوافز على عدم التسامح، وعلى الصيرورة إلى التشدد والحذر الزائد مع الذين نختلف معهم في أمور قد تظن أنها جوهرية.

وأود في هذا السياق أن أوضِّح الأمور التالية:

- تدل تجربتنا التاريخية أنه لا بدَّ أن يكون للتسامح حدود، فهناك دائمًا خطوط حمراء لا يصح تجاوزها.

ولا يصح لمبدأ التسامح أن يتحول من مبدأ لنشر الوئام والتفاهم إلى أداة لإثارة الفتن وإعطاء المسوغ لأهل الغلو بالقيام بأعمال عنيفة وغير حكيمة. وأعتقد أن كل الأمم تتفهّم مثل هذا المبدأ، وتعمل به. لكن تجربتنا التاريخية تعلّمنا شيئًا آخر، هو أن السلطة تملك دائمًا الإغراء باستخدام القوة في رسم الخطوط الحمراء عوضًا عن بناء القناعات عن طريق الحوار والجدل والتثاقف... وهذا في الحقيقة شكل من أشكال خيانة القوة للذين يملكونها.

- نحن - وكذلك غيرنا - نعيش في وسط غير كامل. وحين يعيش الإنسان في وسط غير كامل، فليس من حقه انتظار الوصول إلى حلول كاملة. لن نستطيع من خلال التسامح تحقيق ما نصبو إليه من وحدة الكلمة، كما أننا لن نصل إلى ذلك عن طريق الضغط والإكراه. المقصيّ والمنفي عن طريق القوة، يجد دائمًا الفرصة - ولو بعد حين - للظهور في صورة انفجار، يذهب بالصالح والطالح، ويضطر المجتمع بذلك لأن يبني توازناته، ويعيد ترتيب أوراقه من نقطة الصفر. أما التسامح فإنه يمنحنا الفرصة لإصلاح الخلل على سبيل التدرج وفي إطار تبادلات ثقافية هادئة.

حين يكون المرء على حق وعلى ثقة جيدة بتوجهه فإن تسامحه مع المخالفين يشكّل دليلًا إضافيًا على صحة ما هو فيه؛ حيث يرى الناس آنذاك سقم الآراء التي تسامح معها.

وقد كان (توما الأكويني) يقول: « إن الكنيسة الكاثوليكية تستفيد فائدة حقيقة من ترك اليهود يمارسون شعائرهم؛ لأن هذه الشعائر في نظره هي بمثابة شهادة حيّة على صحة الديانة المسيحية ».

- لا يكتشف العقل البشري الأشياء إلّا على سبيل التدرج، ولا تظهر حقيقة الشيء على نحو جيد إلّا إذا اكتمل. والحقيقة الواحدة طبقات بعضها فوق بعض، وكلما ظننا أننا لامسنا آخر طبقة فيها برزت لنا طبقة جديدة، لتلقي علينا أسئلة جديدة. وفي كل حقيقة عنصر غيبي استأثر اللّٰه بعلمه.

والقصور الذاتي لنظم الدلالة اللغوية، يجعل فهمنا لكثير من الأمور ظنيًا، وقابلًا للتغيير والتبديل. لهذه الأسباب - وأخرى غيرها - يكون من المنطق ومن الواقعية أن نحاول رؤية الأشياء من وجهة نظر الآخرين، وأن نعدّ تعدد زوايا النظر شيئًا مشروعًا في كثير من الأحيان. كلما زادت درجة التعقيد في المعطيات كان من المنهجية أن نزيد في درجة المرونة خلال المعالجة والتنظير.

ونحن اليوم متفقون على أن أوضاعنا ليست على ما يرام، وأن لدينا الكثير من المشكلات الملحّة. كما أننا متّفقون على ضرورة القيام بإصلاح شامل وجذري على العديد من

الصعد، لكن الأسباب موضوعية لا نستطيع تحديد الأولويات الإصلاحية كما أننا نستطيع تقدير حجم رأس المال الأخلاقي والعلمي والاجتماعي الذي نملكه والذي نحتاجه في عملية الإصلاح. وقل نحوًا من ذلك في الأدوات والأساليب التي علينا أن نستخدمها في ذلك. هذا يعني أن التسامح تجاه الوجهات الإصلاحية المختلفة لا يكون شيئًا من قبيل الإحسان، وإنما من قبيل الضرورة.

قد كان علماؤنا القدامى يقولون في التعبير عن هذا المعنى: « مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب ».

وبما أن المجال الفقهي غني بالنصوص التي تُؤطّر بالمعالجة الاجتهادية فإن مجال تعدّد الصواب يكون معدومًا أو ضيقًا. أما في مجال الاجتهاد الحضاري والإصلاحي فإن الأمر واسع؛ فإذا اجتمع خمسة من التربويين لبلورة خطة لإصلاح الشأن التربوي، فسيكون في إمكان كل واحد منهم أن يقول: ما أراه صوابًا يحتمل الخطأ. وما يراه غيري صوابًا يحتمل الخطأ. وقد يكون الصواب في حقيقة الأمر مع شخص سادس أو سابع خارج المجموعة. وقد يكون موزعًا على الجميع. ولهذا فإن التشبث بالمواقف كما يفعل من يملك الحق القطعي الذي لا شبهة فيه، لا يستند إلى رؤية موضوعية ولا إلى أساس متين من حسن النظر.

- من المهم دائمًا أن يعكس التعبير الذي نستخدمه في توضيح آرائنا ومذاهبنا طبيعةَ الظن والاحتمال الذي يخترق العمل الاجتهادي. وسنكون مطالبين ألا نندفع إلى استخدام تعبيرات تحمل درجة من القطع والوثوق، تأباها طبيعة المقدمات والمعطيات التي بنينا عليها رؤانا الإصلاحية. من المعروف في هذا السياق أن النصوص الشرعية في المجال السياسي قليلة جدًّا إذا ما قورنت بما هو متوافر في مجال العبادات - مثلًا - مما يعني وجود أمداء واسعة للاجتهاد والاختلاف وتباين الطروحات. وهذا يملي علينا أن نستخدم التعبيرات التي توحي بوجود رؤى شخصية، وأن نبتعد عن التعبيرات التي يفهم منها أننا نتحدث عن حقائق مطلقة أو مسائل بدهية أو قطعية.

وقد عقب الإمام الجويني في كتابه (غياث الأمم في التياث الظلم) على الماوردي فيما صنعه في كتابه (الأحكام السلطانية) حيث إنه لم يراع هذا المعنى في طريقة صياغته وعرضه للمسائل السياسية الشرعية في ذلك الكتاب. إنه - كما يقول الجويني - ساق الظنيات في مساق القطعيات، وفي هذا تحميل للأمور أكثر ما تحتمل. وهذه ملاحظة ذكية جدًّا، وآمل أن ننتفع بها في مجادلاتنا اليوم.

● يصعب علينا أن نقول: إننا نملك فضيلة التسامح إذا لم نؤمن إيمانًا عميقًا بجدوى (الحوار) في تحسين رؤيتنا للأشياء.

حين نعتقد أن في كل المسائل الغامضة نقاطًا مظلمة، تحتاج إلى إضاءة، وأننا من خلال قدراتنا العقلية والمعرفية الخاصة، لا نتمكن من إضاءة تلك النقاط، فإننا سنسعى إلى الحوار بوصفه الأداة الوحيدة لتوضيح الصورة الذهنية لمعظم الأشياء. وقد قال أحدهم بحق: « إن الأفكار لا تنضج إلّا إذا لاكتها ألسنة المناظرة ».

من خلال الحوار نمحص الفكرة بالفكرة والمقولة بالمقولة. ومن خلال الحوار نمنح الأفكار امتدادات جديدة، كما نحرم بعض الأفكار من امتدادات غير مشروعة. ينطوي الحوار على التسامح؛ لأنه ينطوي على اعتراف ضمني بالقصور، ويحدّ من غلواء الاعتداد بالذات. وهذا هو الذي يرسخ لدينا مشاعر الحاجة إلى الآخرين. وبمجرد توافر هذا الشعور يبدأ التنازل، وتبدأ حركة التأثير والتأثر. والشعور بالحاجة إلى الآخرين – من وجه آخر – يشكل شرطًا للاستفادة من الحوار.

إن كل واحد منا مطالب بالإيمان بأن الحوار ليس شعارًا نرفعه، أو شيئًا تزيينيًا نتجمّل به، وإنما هو مصدر لتغير الأفكار وتنمية الاتجاهات وإزالة الأوهام.

سيكون الحوار مثمرًا إذا استطاع أن يوجِدَ المزيد من الشك في أمور كنّا ننظر إليها نظرة الموقن الجازم بما يرى وبما يذهب إليه. وإن الشك يولد بداية لامتلاك زمام المراجعة، في

الوقت الذي يؤسس فيه للتسامح.

ومن المفيد أن نتأمل في قول الله - تعالى-: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

من الواضح أن الآية تشتمل على توجيه للنبي ﷺ بأن يدعو الكفار إلى المحاورة من أجل اكتشاف الفريق المهتدي من الفريق الضال. إن النبي لا يشك، ولا يشك المؤمنون معه كذلك أن الحق معهم، لكن هذه الدعوة من باب التشجيع على مراجعة الكلام وإثارة النقاش. إنه تسامح شديد الوضوح يتيح درجة من التكافؤ بين الرسول المعصوم والمبلّغ عن ربه وأقوام لم ينالوا من العلم إلّا أقل القليل. وقد قال بعض النحويين إن « أو » في الآية للتشكيك. إنها تساعد على إيجاد جو من الشك يشجع المعرضين عن الإسلام على الانفتاح من جديد على الدعوة المقدمة إليهم من خلال الإيحاء باستعداد المسلمين للانفتاح على ما لدى مخالفيهم. وهذا مثل قول الواثق من حجته لخصمه: أحدنا على الحق، أو أحدنا كاذب مع أنه لا يشك أنه صادق وأنه على الحق، لكنه التحفيز على الحوار وإعادة النظر.

● يسيء المتصلّب والرافض للتسامح إلى نفسه وإلى دعوته ومنهجه من حيث لا يدري؛ حيث إن ذلك يكون

غالبًا في حالة التمكُّن والشعور بالسيطرة. ومن الواضح أن المعارضة في معظم الدول هي التي تدعو إلى الحوار بوصفه الخيار الوحيد الذي قد يمكِّنها من تحقيق بعض المكاسب. لكن الذين يملكون النفوذ يرون في الحوار مدخلًا لخسارة أشياء لا يصح التنازل عنها أو التفريط بها. وحين نقرأ التاريخ بعمق نجد أن المتصلِّب والمفتقر إلى روح التسامح، يمنح خصومه جاذبية، لا يستحقونها، ويجعل منهم أمناء على تحقيق مصالح قد لا يكونون من الناحية العملية أهلًا للنهوض لها.

حين يكون الأقوياء حديين في تعاملاتهم ومواقفهم من منافسيهم فإنهم يحققون مكاسب مادية، أو يوفرون لأنفسهم شعورًا بالقوة والتمسك، لكنهم يخسرون ما كان في الإمكان تحقيقه من فتوحات فكرية وروحية. وتخسر الدعوة التي يحملونها والأفكار التي يؤمنون بها جزءًا كبيرًا من تألّقها وقدرتها على الإثارة.

قد بعث نبينا ﷺ بالحنيفية السمحة. وقال ﷺ: « **أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة** »[1]. وقال ﷺ: « **خير الدين أيسره** »[2]. فهل يليق بنا أن نكون شيئًا غير ذلك؟!.

* * *

(١) قطعة من حديث: « إني بعثت... »، وهو في شعب الإيمان للبيهقي.
(٢) رواه البخاري، رقم (٣٩).

التفكير الشبابي

يتّضح لنا يومًا بعد يوم أن معظم المشكلات التي يعاني منها الناس، لا يعود إلى ما هو موجود في الواقع ولا إلى ضعف الإمكانات والمعطيات المادية، وإنما يعود إلى قصور في الذهنية، وإلى خلل في رؤية الأشياء، وإلى خلل في آلية التفكير وعتاد العقل. ولو أننا تأملنا في طريقة تفكير الشباب لوجدنا أن لها طابعًا خاصًا يميزها عن طريقة تفكير الشيوخ.

وبما أن التعميم في كل شيء يشكّل خطأ في الحكم، فإنه يمكن القول: إن هناك من الكهول والشيوخ من يفكّر بنفس طريقة الشباب؛ لأنّه يملك روح الشباب وحيويته وتوقّد ذهنيته. وهناك أيضًا من الشباب من لا يفكر كما يفكر الشاب الذكي، وذلك ليس لأنه يفكّر بلون آخر من منهجية التفكير، وإنما لأنه لا يفكر أبدًا!

فما معالم تفكير الشباب؟ وما وجه المفارقة بينه وبين تفكير الشيوخ؟

١ - تتعاظم الخبرة لدى الكبار في السن، وتنضج التجربة والرؤى، وتكتمل القناعات. ولهذا ولا شك ميزته الكبرى؛ بل هو أحد الثمار اليانعة للمعاناة الطويلة والأخطاء المتكررة، لكن لهذا أيضًا مشكلاته وعقابيله العديدة التي

منها كثرة الحديث عن الماضي، والإغراق في تحليله وبيان أزماته وممانعاته. بمعنى آخر يجد الكبير في السن نفسه كأنه صار مكبّلًا مرتبطًا بأثقال التجربة الكبيرة التي خاضها.

إن الخيال ينقل الوعي من بؤرة الخبرة ليجعله على حوافها ليكون متصلًا بالمظنون والمجهول والمتوهم والمحتمل. وحين تكون الخبرة عريضة وعميقة، فإن مغادرة الخيال لحدودها تصبح أمرًا شاقًّا. وهذا يجعل المرء يبدو وكأنّه يدور حول نفسه.

أما الشباب، فإن لديهم القليل والقليل جدًّا مما يمكن أن يتحدّثوا عنه، ولهذا ميزاته وسلبياته. حين يفكر المرء من غير خبرة يتكئ عليها فإنه يكون مهددًا بالتهوُّر وبالبعد عن الحدود التي يرسمها الواقع. وخطورة مثل هذا التفكير تتمثّل في اتخاذ قرارات غير عملية، والتّطلع إلى الحصول على أشياء لا يمكن الحصول عليها، مما يجعل الشاب يتعرّض في النهاية إلى موجات من اليأس والإحباط، لكن التفكير الإبداعي يتطلّب من المرء أن يكون مستعدًّا لرؤية الأشياء خارج الأنماط المألوفة وبعيدًا عن الارتباطات السببية المعهودة والمعمول بها. ومن هنا فإن معظم المبدعين هم من الشباب ومن يكبرهم قليلًا.

إن السذاجة كثيرًا ما تكون عبارة عن محرّض لبذل أعظم

الجهود وتحمّل أكبر المشاق، وهذا ما نجده لدى الشباب ونجده أيضًا لدى الكتّاب.

إننا معاشر الكتّاب نتمتع بسذاجة كسذاجة الأطفال؛ حيث نعتقد أن ما نكتبه يؤثّر تأثيرًا بالغًا في حركة المجتمع، ومع أن هذا قد لا يكون صحيحًا في كثير من الأحيان، وهو مبالغ فيه في معظم الأوقات، إلّا أنه يشكل الوقود الحيوي للاستمرار في الكتابة بوصفها عملًا عظيم التكاليف وقليل الجدوى.

٢ - يحلم الشباب بالأحلام العريضة الطويلة، ويمدّون أبصارهم نحو الآفاق البعيدة؛ وذلك لأن اعتقادهم بطول المدة المتاحة لهم في هذه الحياة، يحملهم على التفكير والاستثمار في قضايا ومشروعات بعيدة الأمد وذات بعد إستراتيجي. وهذه ميزة كبرى على صعيد تطوير الأمم والشعوب وعلى صعيد تأمين مساقات للعمل والعطاء على صعيد الأفراد.

أما الشيوخ فإن إحساسهم بدنو الأجل ونفاد الطاقة يجعلهم يفكّرون فيما يمكن أن يحدث على المدى القصير، كما يدفعهم في اتجاه التقليل من الحديث عن التغيير والتطوير، مع أن الله - تعالى - قد ينسأ في الأجل ويمد في الطاقة، ما يمكّن المرء من القيام بالكثير من الأشياء العظيمة.

وإنه لدرس بليغ ذلك الذي نستخلصه من قوله ﷺ:
« **إذا قامت الساعة على أحدكم وفي يده فسيلة فليغرسها** ».

إن علينا أن نفكر في المستقبل البعيد، وأن نؤسس الأعمال الجيدة والمطلوبة بقطع النظر عما إذا كنا نحن سنقطف ثمارها أو كان من يفعل ذلك من الأبناء والأحفاد...

٣ - يتّسم تفكير كثير من كبار السن بالتشاؤم، ويتّشح بالسواد، ولا ندري تمامًا لماذا يكون ذلك؟ هل هو بسبب تراجع القوى والشعور بالضعف والشعور بالخوف من الموت وما بعده؟ أو أن ذلك يكون بسبب التربية والبيئة اليائسة والمحبطة؛ حيث بلغ التشبّع بمعطياتهما أقصى مداه؟

أما الشباب فله شأن مختلف؛ حيث الآمال الغضة والنفوس المتطلّعة إلى الأفق البعيد، وحيث الترقُّب للأشياء السارة والمدهشة. تفكير الشباب تفكير يتسم بسمتين مهمتين. هما: **التفاؤل والمرح**.

ضعف الخبرة بظروف الحياة وقيودها يساعد الشباب على التفاؤل، ويدفعهم دفعًا في انتظار مباهج الحياة ومسراتها. والمرح شيء طبيعي في النفس البشرية حين تسلم من الشعور بوطأة التكاليف وثقل الأعباء، وهذا موجود لدى الشباب حيث تكون مسؤولية إعالتهم على أهلهم. وأعتقد أن في إمكان الشيوخ أن يستفيدوا من الشباب، ويتعلموا

منهم هذه الميزة، وذلك بشيء من إدارة الإدراك ومحاولة رؤية الأشياء بطريقة جديدة.

٤ - الشباب أكثر مواكبة للجديد وأقدر على التلاؤم معه، وهذا يجعلهم يعتقدون أن هناك معطيات جديدة في كل مجال من المجالات، ووجودها طبيعي ومألوف، والاستجابة لها لا تحتاج إلى تفريغ الذهن من معطيات قديمة ومتقادمة؛ حيث لا قديم يُذكر لدى الشاب. ولهذا فإن الشباب يعملون وفق قاعدة: « الجديد صحيح حتى يثبت خطؤه ».

أما الشيوخ فيعملون وفق مقولة: « الجديد يعامل بتريُّث وحذر إلى أن يثبت صوابه ». ومع أنّ أيًّا من الموقفين لا يكون مناسبًا في بعض القضايا إلّا أن الانفتاح على الجديد يظل أقرب إلى الصواب في معظم الأحيان.

٥ - شبابنا يرون اليوم بأم أعينهم الطفرات المتتابعة في مجال التقنية والاتصال والكماليات والمرفهات، وهذا يدعوهم إلى التفكير وفق المقولة: « كم ترك السابق للّاحق ».

أمّا كبار السن فإن امتلاءهم من القديم وعدم تفتّحهم على الجديد... يجعلهم يفكّرون وفق المقولة الذائعة: « ليس في الإمكان أبدع مما كان ». ووفق مقولة: « ما ترك الأول للآخر شيئًا ». وهذا يعبّر عن التوجُّس من الجديد، كما يعبّر

عن التعلُّق بالقديم.

نحن في حاجة إلى العمل وفق معادلة صعبة، تقوم على أفضل ما لدى الشيوخ من الأناة والخبرة وعمق التجربة. كما تقوم على أفضل ما لدى الشباب من توثُّب ذهني وتفتُّح عقلي وانطلاق روحي.

ومن يستطيع الجمع بين هاتين الفضيلتين فإنه يستحق بجدارة لقب « شيخ الشباب »!

* * *

نحو المحور

الهروب نحو الأمام فن يجيده كثير من الشباب والكهول. وهو يتخذ عددًا كبيرًا من التجليات والتجسيدات. حين أنقد غيري لأجعله يدافع عن نفسه عوضًا عن أن يبادرني بالنقد أكون قد مارست نوعًا من الهروب إلى الأمام. وحين أتحدّث عن محاسن الهزيمة أمام العدو قبل أن ألقى التقريع عليها فإني آنذاك أفر نحو الأمام. حين أتحدث عن مشكلات المسلمين في العالم وأنسى الحديث عن مشكلاتي وتقصيراتي، فإني أقوم بالفرار نحو الأمام وهكذا...

الفرار نحو الأمام كثيرًا ما يتم بطريقة غير واعية؛ فنحن بدافع من الحرص على الاحتفاظ بدرجة من اللياقة النفسية نسلط أضواء الوعي لدينا على أمور لا علاقة لها بوضعنا الشخصي، ولا يرتّب إصلاحها أي التزامات جديدة علينا.

من القليل – مثلًا – أن يتحدث المعلّمون في مدرسة عن دورهم أو دور النظام التعليمي أو إدارة المدرسة في ضعف الطلاب أو سوء أخلاقهم. هناك دائمًا شيء نهرب إليه. فقد يكون السبب في ضعف الطلاب هو إهمال الأسرة، أو ضعف التجهيزات، أو رداءة التعليم في مرحلة سابقة، أو انشغال الطلاب باللعب... ويتجنب أولئك المعلّمون في

العادة مقارنة مدرستهم بمدرسة أفضل منها؛ لأن ذلك يعني فتح باب للتساؤل عن أسباب التقصير والمسؤولين عنه.

إننا من خلال الهروب إلى الأمام نسجّل عددًا هائلًا من الأخطاء والجرائم والانتكاسات ضد المجهول. وبسبب تكاثر المشكلات فإن الدعاوى تتساقط بالتقادم!

لدينا عدد كبير من أهل الغيرة وأهل النيّات الحسنة، وعدد أكبر منهم من أولئك الذين يتقنون الحديث عن الأزمات المستحكمة والمستقبل الضائع والأمة المخطوفة... لكن ليس لدينا سوى أعداد قليلة - نسبيًّا - تُحسن توصيف الواقع بعمق وشمول، وأعداد أقل تعرف فعلًا كيف يمكن النهوض بذلك الواقع؛ وأعداد أقل من هذه وتلك تقوم فعلًا بالمساهمة في تحسين الرصيد العالمي للأمة!

ليست هذه الصورة متشائمة وإن تكن قاتمة. فما الذي علينا عمله تجاه هذه الحالة الصعبة؟

نستطيع أن نقول: إن عقولنا وأجسامنا تتحرك في العادة داخل ثلاث دوائر أساسية: دائرة السيطرة، ودائرة التأثير، ودائرة الاهتمام. وهذه نبذة موجزة عن كل واحد منها:

- **دائرة السيطرة:**

هي الدائرة الشخصية والخاصة والتي يمارس المرء فيها نفوذه الفكري والبدني والمالي... على نحو كامل. إن

الواحد منا يفكّر، ويتّخذ قرارات، ويتحرّك، ويلبّي بعض رغباته، ويُحجم عن تلبية بعضها الآخر. إنه يقوم بكل شؤونه الذاتية دون وجود حاجة غير معتادة للآخرين.

- **دائرة التأثير:**

هي الدائرة أو المجال الذي يترك فيه الإنسان تأثيرًا معنويًّا أو ماديًّا، كما هو شأن المرء مع أسرته ومرؤوسيه وزملائه وأقربائه وأصدقائه وجيرانه وطلابه ومحبيه... التأثير في هذه الدائرة متفاوت تفاوتًا كبيرًا؛ فتأثير الإنسان في ولده غير تأثيره في جاره أو ابن صديقه.

- **دائرة الاهتمام:**

وهي الدائرة التي تتصل بأحلامنا وطموحاتنا وأوهامنا ورؤانا ومخاوفنا. إنها الدائرة التي تعكس حيوية المعتقدات والأفكار، وما يحمله الناس من تشوّق إلى التغيير والتحسين والتطوير، وما يحملونه من تطلّعات تتّصل أساسًا بالمستقبل.

التحدّي الأساسي الذي يواجهنا يكمن في تجويد أدائنا في دائرة (السيطرة) وذلك لأن مسؤوليتنا أمام الله ﷻ كثيرًا ما تدور حول مفردات وقضايا مصنفة داخل هذه الدائرة. يقول الله – سبحانه –: ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾ [النساء: ٨٤].

ثم إن التقصير في هذه الدائرة هو الأكبر في حياتنا، كما أن

إخفاقنا في السيطرة على أنفسنا ينعكس بالضرورة على أدائنا في دائرة التأثير ودائرة الاهتمام. تحسين السيطرة يتناول أمرين أساسيين: قوى الحركة والعطاء والتغيير، وقوة الكف والمنع.

نحن في حاجة أن نتعلّم كيف نستفيد من مواهبنا، وكيف نحرّر طاقاتنا الكامنة، وكيف ندير أوقاتنا، كما أننا في الوقت نفسه في حاجة إلى زيادة قدرتنا على مجاهدة أنفسنا وتأجيل بعض رغباتنا وكبح أهوائنا ونزواتنا.

إن هذا النوع من التحسين يشكّل أفضل هديّة يمكن أن يقدمها أي إنسان لأمته. إن الوضعية النهائية للأمّة متوقّفة على نوعية وضعيات أبنائها، تمامًا كما تتوقّف صلابة الجدار على صلابة اللبنات المكوّنة له. فكما أنك لا تستطيع بناء جدار متين من لبنات هشة، كذلك لا تستطيع بناء أمة أقوى من مجموع أفرادها.

تحسين العمل في دائرة السيطرة يحتاج إلى:

١ - الاعتقاد بأن أفضل ما يمكن أن نقدّمه لديننا وأمتنا ودنيانا يكمن في هذه الدائرة على نحو أساسي.

٢ - الاعتقاد بأنه مهما سارت الظروف وكثرت التحديات فستظل هناك إمكانية للارتقاء الشخصي وتحسين سوية عطائنا وتقدّمنا.

٣ - اكتشاف مكامن القوة ونقاط التفوّق لدى كل واحد منّا.

٤ - أهداف شخصية محدّدة ومبرمجة وعملية.

٥ - السعي إلى تعلّم الجديد والمفيد، وجعل اكتساب المهارات المختلفة شيئًا جوهريًا في كل مراحل العمر.

هذا وما شاكله يحتاج إلى طاقة ووقود روحي ومعنوي. مصادر الطاقة عديدة، فقد تكون الحسد، وقد تكون الغيرة، وقد يكون الجشع والأنانية، وقد تكون المنافسة... وهذه المصادر كلّها ملوثة، وهي تشكّل دوافع سيّئة في اتجاه خاطئ.

مصدر الطاقة العظيم هو الصلة بالله - تعالى - ورجاؤه وخوفه ومناجاته والتضرّع إليه والتماس مراضيه.

كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يذكر الله من بعد صلاة الفجر إلى ما بعد طلوع الشمس، وكان يقول: « هذه غدوتي - أي الوجبة الروحية للغدو - فإذا لم أتناولها خارت قواي ». وكان يذهب إلى البراري والأماكن المهجورة. ويمرّغ وجهه في التراب، ويقول: « يا معلم إبراهيم علّمني، ويا مُفَهِّم سليمان فهّمني ».

مصدر الطاقة هو الذي يبلور الاتجاه، ويساعد على تحديد نوعية العمل ونوعية العلاقات.

حين يحدث تقدّم للمرء في دائرة السيطرة، ويشعر بأن لديه نوعًا من التفوق على الذات فإنه سيجد أن دائرة تأثيره تتسع.

الفضيلة والقوة الشخصية تعمل عن طريق العدوى والإشعاع والجاذبية. ولا بدّ هنا من أن ننبّه إلى أن التأثير عن طريق القسر والإكراه هو تأثير سطحي ومؤقّت، وأن التأثير الحقيقي هو التأثير الذي يتم عن طريق الجذب وإثارة الإعجاب ولفت الانتباه. وهذا كله متوقّف على ما نحرزه من تقدُّم في دائرة السيطرة.

حين يكون المرء في حالة عطالة وانكفاء على الذات فإنّ دائرة اهتمامه تكون مملوءة بالأمنيات والأُوهام، كما يفعل رجل لم يمارس في حياته المصارعة حين يتصوَّر نفسه على حلبة مصارعة عالمية وقد هزم أبطال العالم، والتهبت الأكف بالتصفيق له!

أمّا في حالة الفاعلية والانطلاق فإنّ دائرة الاهتمام تكون دائرة الرؤية، وتلمس حقول الممارسة الجديدة، والتشوق إلى الآفاق الممتدة. في دائرة الاهتمام تولد الأفكار التي تنمّي الحضور في دائرة السيطرة، والتقدُّم في هذه الدائرة يوسِّع مدى التأثير الذي يمكن أن يتركه المرء في غيره. إقامة نصاب التوازن وإعطاء كل دائرة ما تستحقه من العناية والجهد يظل هو التحدي الذي يهزم أمامه جُلُّ الناس.

* * *

الانضباط الذاتي

تقدُّمُ أمة الإسلام، واحتلالها المكانة التي تليق بها بين الأمم مرتهن بحصول تقدُّم على صعيد الحياة الشخصية لشريحة واسعة من أبنائها وبناتها. وهذا التقدُّم ملموس اليوم لكنَّه بطيء للغاية، وضيِّق النطاق. والسبب في هذا ربّما كان كامنًا في عدم امتلاكنا تقاليد ثقافية تمجِّد العمل الشاق، وتُعلي من شأن الإنجاز وتأجيل الرغبات.

والمشكل أن كثيرين منّا غرقوا في حياة، يُقضى الكثير من متطلباتها بلمس الأزرار، ممّا جعلهم يعتقدون بضرورة الحصول على الأشياء بطرق سهلة وعاجلة. إنّ هذه الفئة من الناس، تتعامل مع الشدائد والضغوط بطريقة، يسودها الكثير من الكسل والفوضى واللامبالاة. ويتعاملون مع الوفرة والرخاء والجدة بالاستمتاع والإسراف والتبذير. وما تتم التضحية به في كلتا الحالتين هو صلابة الشخصية والانضباط الذاتي.

حين نتحدث عن مسألة الانضباط الذاتي، فإنّ قسمًا من الناس يعتقدون أننا نتحدّث عن شيء يتّصل بمعاقبة الذات، أو تقييدها، أو تجاهل حقوقها. وبعضهم ينظر إلى الانضباط الذاتي على أنه نوع من الحرفية أو الجمود والتكلس، أو النقص في المرونة. وهذا كله غير دقيق، ولا يعبر عن

جوهر هذا المصطلح. **إذن ما الذي نريده منه، وما أهمية اكتساب هذا المعنى في حياتنا الشخصية؟**

لعلّي في الإجابة عن هذا التساؤل أجلو الملامح الآتية:

١ - إن التديُّن الحق يرسم صورة زاهية وبليغة للانضباط الذاتي، إنّه يجعل المسلم، يقوم بالكثير من الأشياء، ويكف أيضًا عن كثير من الأمور في المنشط والمكره والشدة والرخاء. وتطبيق السُّنة في حياة المسلم يعني يقظة الوعي نحو التفاصيل، والقدرة على السيطرة على الأهواء والرغبات. لكن مشكلة كثير من الملتزمين أنّهم لم يستطيعوا تعميم هذا المعنى على حركتهم اليومية؛ حيث إنّهم كثيرًا ما يجدون أنفسهم بعيدين عن الإنجاز العالي وعن المثابرة على أداء العمل الشاق. وهذا أدّى بالطبع إلى انخفاض إنتاجية الإنسان المسلم على نحو مخيف.

إن الناتج القومي لليابان يشكّل أربعة أضعاف ناتج العالم الإسلامي برمته! وإذا عرفنا أنّ عدد المسلمين يساوي عشرة أمثال سكّان اليابان ظهر لنا أنّ متوسط إنتاج الفرد الياباني يساوي إنتاج أربعين من المسلمين! أليس هذا من الأمور المحزنة؟!

٢ - يعني الانضباط الذاتي فيما يعنيه تنظيم الذات؛ حيث وضوح الأهداف واستمرار البرامج وتأجيل الرغبات.

إنّ الشخص المنضبط يتحمّل بعض الآلام، إنّه يعمل وينتج ويقاوم المشتهيات إذ يستسلم غيره للنزوة، ويدمن الاسترخاء! وقد تبين أن حفز الذات على العمل يظل بعيد المنال ما لم يكن للإنسان أهداف مرحلية واضحة. لو تأمّلت في حياة كثيرين منّا لوجدت أنّهم يعانون من الفوضى الشخصية والنقص في التركيز. وهذان الأمران هما العدوّان اللدودان للانضباط الشخصي.

جرّب واسأل عيّنة ممّن حولك عمّا يحاولون إنجازه خلال عام، وما الخطوات التي يتبعونها في سبيل بلوغ ذلك؟

سَلْ من حولك عن الأشياء التي يعدّها أولوية في حياته خلال العام الحالي؟ ولماذا هي أولوية؟ وكيف يعبّر سلوكيًّا عن نظرته إليها؟ إنَّ معظم الناس لن يجدوا شيئًا يقولونه، أو إنّهم سيحدثونك عن أشياء لا معنى لها!

٣ - المنضبط ذاتيًا يشعر أنّه يُدرِّب نفسه شيئًا فشيئًا على إنجاز الأمور. وهو إلى جانب ذلك يطوّر خطته للإنجاز، ويتابع تنفيذ العهود التي قطعها على نفسه. إنه يعرف أن تحرير الإرادة يشكّل أكبر علامات النصر على طريق طويل، وفي معركة حاسمة. ويدرك أن تحرير الإرادة يكون شيئًا مجوفًا وفارغ المضمون إذا لم يجد المرء نفسه قادرًا على أداء الأعمال المهمّة، وإن كان يفقد الرغبة للقيام بها. وهذا لأنّه

يُفرّق على نحو جيّد بين ممارسة الهواية وبين أداء الواجب.

وقد سألت غير واحد ممّن يشتغل بالبحث العلمي عن جوهر ما يقوم به، وكان الجواب هو حبُّ التسلّي وشغل الوقت بشيء قد يكون مفيدًا! وهذا الفريق من الناس ليس ضئيلًا؛ فهو يشكِّل شريحة واسعة بين أولئك الذين لا يؤمنون بأهميّة ما يقوم به، كما لا يعرفون بالضبط الجهة التي ستستفيد من مجهوداتهم!

٤ - حين نشعر بالمسؤولية الشرعيّة والأخلاقيّة والأدبيّة عن أعمارنا وعن الإمكانات التي أتاحها اللّه - جلَّ وعلا - لنا، فإننا سنضبط إيقاع حركتنا، وسنتعلّم الاقتصاد في الجهد وفق الخطوة المناسبة، وسنحاول باستمرار اكتساب العادات الجيّدة. وهل السلوك الحسن سوى عدد جيد من العادات الحسنة؟ وسوف نقوم بتكرار الأعمال المثمرة والصغيرة؛ لأن ذلك يعبِّر عن بعض وجوه الاستقامة، كما يدل على تحلينا بفضيلة الإصرار على التقدُّم.

مفتاح خلاص الأمة مما هي فيه شيء كامن في عقولنا ونفوسنا. حيث تدور أشرس المعارك وأنبلها. والبحث عنه في أيّ مكان آخر سيكون من هدر الوقت. فهل اتضحت معالم الميدان؟ وهل آن أوان التحرير؟ هذا ما أرجوه.

* * *

الأشياء الصغيرة

في أحيان كثيرة يجد الناس أنفسهم يعملون وفق معادلات خاطئة، أو يجدون أنفسهم وقد قعدوا عن العمل بسبب تنافر إمكاناتهم مع طموحاتهم. شيء جميل وعظيم ألّا نرضى بالقليل، وأن نتطلّع إلى الكثير من الخير لنا ولأمّتنا، ولكن بشرط ألّا تعظم الفجوة بين المطلوب والممكن إلى درجة نفقد معها الحماسة للعمل، ونزهد معها في الممكن، فيضيع من أيدينا إذ ترنو أبصارنا نحو العسير والمستحيل!

في مجال الأعمال يقولون: « فكّر عالميًا، وتصرّف محليًا ». وهذا قول حكيم، يمكن أن نستفيد منه في المجال الدعوي والمجال الحضاري عامة.

لنمتلك الرؤية الشاملة والواسعة، ولنحاول أن نعرف موقعنا بدقة على الخارطة العالمية والمحلّية. ولنلامس في تصوّراتنا آفاق المطلوب والمتاح، وآفاق القريب والبعيد، والسهل والمرهق، ولكن لنُركّز جهودنا دائمًا في دوائر التأثير؛ حيث لا يدخل في الرصيد في نهاية المطاف إلّا تلك المنجزات الصغيرة والقابلة لوضع اليد عليها. الأشياء الصغيرة تظل دائمًا قابلة للتنفيذ؛ لأنها قابلة للتصديق. والأشياء الكبرى كثيرًا ما تبقى في حيّز الأمنيات؛ لأنّنا نشك عادة في قدرتنا على القيام بها.

كثير من الشباب المسلم حائر في توظيف وقته وطاقاته في المجال المثمر والملائم؛ فهذا شاب يرغب في أن يكون داعية وطبيبًا. وهذا شاب يرغب في أن يكون مهندسًا وفقيهًا. وهذا شاب ثالث يرغب في أن يكون مدرّسًا ورجل أعمال...

شباب كثيرون ابتعثتهم حكوماتهم إلى بلاد الغرب ليدرسوا بعض التخصّصات العلمية المهمة، فما كان منهم إلاّ أن تركوا تخصّصاتهم، وانتقلوا إلى المجال الدعوي. وكثيرًا ما تصادف في الولايات المتحدة الأمريكية شابًّا مسلمًا يعمل إمام مسجد، وقد كان تخرَّج من قسم الكيمياء أو الفيزياء. وهذا رجل يحمل الدكتوراه في الأدب الإنجليزي ترك التدريس في الجامعة ليدرِّس في مدرسة عربية هزيلة هناك...

في بلادنا شباب ورجال كثيرون لا يحبّون الوظائف التي قضوا فيها شطرًا مهمًّا من أعمارهم، إنّهم ينظرون إليها على أنها خط رزق احتياطي، أو أنها مصدر تُستمد منه الوجاهة الاجتماعية. إن تطلعاتهم وتفاعلاتهم ومستقبلهم ليس في هذه الوظائف والأعمال؛ ولهذا فإنهم لا يعطونها إلّا القليل من اهتمامهم وجهدهم! هذا مدرِّس يعمل في تجارة العقار، وهو يجد في تجارته من المردود المادي أضعاف ما يجده في وظيفة التدريس؛ ولهذا فإنّه لا يحضِّر دروسه، ولا يكلِّف

طلابه بكتابة ما ينبغي أن يكتبوه من الواجبات أو ما ينبغي أن يحلُّوه من التمارين؛ لأنّه لا وقت لديه للتصحيح. وإذا دُعِيَ إلى اجتماع مسائي في المدرسة، فإنّه لا يحضر، فذلك في نظره اجتماع لغو، ولا وقت لديه لمثل ذلك! وهذا ليس أكثر من نموذج صغير لبلاء كبير!

وأود أن أضع النقاط على الحروف في الإضاءات التالية:

١ - لن يكون في المستقبل ما يسمّى بالأمم العظيمة والدول العملاقة، ولكن سيكون هناك دوائر تضم أعدادًا من الأبطال الصغار الذين يهتمّون بإتقان الأشياء الصغيرة التي بين أيديهم. وهم يشكّلون حيثما وُجدوا بكثافة بؤرًا متفوّقة ونافذة ومؤثّرة، إنّهم أشبه بقطرات الماء التي يتشكّل منها النهر العظيم، وأشبه بحبّات الرمل التي يتكوّن منها الجبل العظيم. حبّة الرمل ليست بشيء، لكن لولا حبات الرمل لم يكن هناك الجبل العملاق!

من المهم أن ندرك أن كل موقع يحتلّه واحد منا هو ثغرة من ثغور الإسلام. ومن خلال نوعية تصرفنا وأدائنا في ذلك الموقع، نسهم في رفع راية الإسلام وحماية حرماته، أو نُسهم في ذهاب ريح الأمة وجعلها عالةً على غيرها من الأمم. إن أمهر البنّائين لا يستطيع أن يشيِّد صرحًا متينًا من لبنات هشّة. وإن أعظم الحكّام لا يستطيع أن يبني مجتمعًا أقوى

من مجموع أفراده.

كان (بنكوريون) يقول: « إن (إسرائيل) لن تقوم بناء على قرار تصدره المنظمة الصهيونية العالمية، ولكنّنا سنبنيها لبنة لبنة، سنضم البقرة إلى البقرة والمزرعة إلى المزرعة والمصنع إلى المصنع والجامعة إلى الجامعة، وبذلك وحده يصبح لنا دولة بما تعنيه الكلمة ».

هذا المنطق هو المنطق القابل للتطبيق. وأعتقد أن مساعينا في دفع الأمة في دروب النهضة ينبغي أن تتركّز في شيئين أساسيين: تقديم النماذج وبناء الأُطر.

إنّ عقولنا تنطوي في أعماقها على ميولٍ نحو الاستحالة واستصعاب الأمور. والنماذج العملية هي التي تزرع في تصوّراتنا ومشاعرنا الميول نحو الممكن. إنّ كل مثقف مسلم بقليل من الوعي وقليل من الجهد يستطيع أن يقدّم في جانب من جوانب حياته نموذجًا صغيرًا يجذب إليه بعض الناس، فيقلّدونه ويترسّمون خطاه، وبذلك يكثر الخير، وتترسّخ تقاليد ثقافية مثمرة.

هناك في الأمّة رجالات فيهم سمات قيادية، ولهم همم عالية، وهؤلاء لا يكتفون بتقديم النماذج، لكنّهم يبنون الأُطر التي تجمع الجهود المتفرّقة، وتوجّه الأنشطة. وتحرّر الطاقات الكامنة. ومن النماذج والأُطر تتشكّل فيزياء التقدم.

٢ - الأمم الفقيرة ليست هي الأمم التي لا تملك المال، لكنها الأمم التي يتلفَّت أطفالها يمنة ويسرة، فلا يجدون حولهم سوى رجال من الدرجة الثالثة أو الرابعة، فتتَّجه أبصارهم نحو رجالات الأمم الأخرى باحثة عن القدوة والمثل وعن حقل جديد للممارسة. وبذلك تنشأ الفتنة الثقافية!

٣ - هناك علاقة عكسية بين الكيف والكم. وبما أن جهودنا وطاقاتنا مهما بلغت هي في النهاية محدودة فإنّ ما ننجزه يخضع لتلك العلاقة: « الكم دائمًا على حساب الكيف ».

والمتأمل في (حديث القصعة) وفي واقعنا اليوم يجد أنّ الأمّة تعاني من مشكلة (كيف) لا مشكلة (كم)، ولو اتجهنا إلى جعل الإحسان والإتقان السّمة التي لا نتنازل عنها في جميع أعمالنا لتحسنت النوعية وارتقت الأمة.

أَمَلي أن نكفّ عن الهروب إلى الأمام والذي طالما مارسناه من خلال الحديث عن الأشياء الكبيرة كيلا نتحمّل مسؤولية الأشياء الصغيرة.

* * *

أفق تربوي

يمكن القول: إنّ التربية السياسية تعدُّ بين الأمور التي لا تَلقى إلّا القليل من الاهتمام في البيوت والمدارس وفي وسائل الإعلام. وربّما كان هذا امتدادًا لرؤية أسلافنا للدولة؛ حيث كان السائد أنّ الدول المسلمة عبارة عن كيان يجسّد المبادئ الإسلامية بشكل آلي وبدهي. أو أنّها على أقلّ تقدير عبارة عن أداة تنفيذية بيد المبادئ والأخلاق الإسلامية؛ ومن ثمّ فإن تحسُّن التديُّن في المجتمع سيعني بصورة تلقائية تحسُّن أداء الدولة، وتحسُّن التعامل معها إلى جانب تحسُّن تعاملها مع الناس.

وقد تبيّن من خلال تجربتنا التاريخية أنّ هذه النظرة مفرطة في التبسيط والتفاؤل؛ حيث ظهر لنا ولغيرنا من أبناء الأمم الأخرى أنّ الدولة كيان مستقل، له طبيعته وخصائصه، وهو يتمفصل مع المجتمع في معظم الأحيان، ويلتقي معه في أحيان أخرى. ومن وجه آخر فإنّ شيئًا آخر في هذا السياق يحتاج أيضًا إلى تغيير، وهو الرؤية التقليدية للإنسان والتي كانت تقوم على افتراض أنّ الإنسان يولد سيدًا حرًا كريمًا عقلانيًا في ممارساته ومواقفه.

إنّ هذه المعاني جليلة تغرس في نفوس الناس وعقولهم

من خلال التربية ومن خلال استهداف السياسات الإدارية والقانونية لتكوين المواطن الصالح المُدرك لمسؤولياته وحقوقه.

لا يكمن جوهر التربية السياسية في حثّ الناس على ألّا يسكتوا على الظلم، وألّا يعبروا عن نزعاتهم الفردية بطريقة غير مسؤولة أو حثّهم على اتباع القوانين والنظم السارية... إنما يكمن في تعميق بعض المفاهيم الأساسية عبر ممارسة رجال الدولة، وعبر البيئة التربوية التي توفّرها البيوت والمدارس، **ولعلّ من أهم تلك المفاهيم:**

١ - التمسّك بالحق القطعي الواضح والمنافحة عنه وحمايته والتضحية من أجله، والاستمرار في محاصرة الشر والباطل الصريح بالطرق المشروعة وفي إطار الآداب الإسلامية السامية.

٢ - التسامح تجاه الأمور الخلافية، واحترام التعددية في الرأي، ما دام التباين في وجهات النظر في إطار المدلول العام للثوابت والقطعيات.

٣ - تعزيز روح الحوار والتفاوض والمجادلة بالتي هي أحسن، واعتماد النقاش وبثّ الوعي أساسًا في تغيير المواقف والأوضاع والاتجاهات بعيدًا عن القسر والتخويف والإكراه.

٤ - حين يختلف أهل العلم في مسألة من المسائل، فإنّ للحاكم المسلم أن يختار القول الذي يرى فيه ما يحقّق

المصلحة العامة في مرحلة من المراحل. واختياره يقطع النزاع على المستوى العملي التنفيذي. أمّا على المستوى العلمي، فإنّ لكل عالم ولكل فرد الاحتفاظ بما أوصله إليه اجتهاده.

٥ - لا تستطيع الدولة أن تعمل وفق آراء كل الناس، وإلّا فإنها لا تكون مركزًا للتسويات، وتنظيم الأولويات وتوازن المصالح.

٦ - لا يمكن للدولة أن تلبّي حاجات كلّ الناس مهما استهدفت ذلك وعملت من أجله؛ وذلك لأنّ إمكانات الدولة مهما كانت قدراتها عظيمة، تظل في نهاية الأمر محدودة، وطموحات الناس غير محدودة. وقد تعوَّد الناس على مدار التاريخ أن يعملوا باستمرار على تحويل المرفهات والثانويات إلى حاجات أساسية عبر الإغراق في التنعُّم. لكن الذي يجب على الدولة النهوض له، ومن حقِّ المواطنين المطالبة به هو العدل، والإنصاف، والنزاهة، وتحقيق أكبر قدر من تكافؤ الفرص بين الناس.

٧ - لا تستطيع أيّة دولة أن تقطع الجدل حول بعض تصرُّفات رجالها وحول بعض سلوكهم الشخصي. ومن واجب الناس في هذه الحالة التثبُّت والتبيُّن، وعدم المسارعة إلى تصديق كل ما يُشاع. وعلى القضاء أن يمارس دوره في الحفاظ على المصلحة العامة والبت فيما هو موضع نزاع.

٨ - يجب على الفرد الامتثال للتنظيمات والقوانين التي تسعى إلى تحقيق الخير العام، ما دامت في إطار المباح والمشروع.

٩ - حفظ المال العام وصيانة المرافق العامة، وتكثير الأطر التي تقدِّم خدمة عامة للناس مسؤولية أخلاقية وحضارية في ذمة الدولة والمجتمع.

١٠ - للدولة حقوق على المواطن، وللمواطن حقوق على الدولة. حقوق الدولة واجبات على المواطن وحقوق المواطن واجبات على الدولة. ويجب على كل طرف أن يؤدِّي ما عليه إذا أراد أن ينال ما يعده حقًّا له.

١١ -- في إطار الدولة الواحدة لا يصح لأي شخص أن يتصرّف على هواه فيما يعدّ شأنًا اجتماعيًا عامًّا. وينبغي أن تُصان الحقوق المشروعة للأقلّية، كما ينبغي عليها أن تنزل على حكم الأكثرية. وعن طريق الحجّة والبرهان والنقاش الحر، يمكن لكل جهة أن تقنع الجهات الأخرى بوجهة نظرها.

١٢ - التشاور واستمزاج الآراء واكتشاف المواقف والتوجُّهات، والعمل على الاستفادة منها ومراعاتها، هو العمل الذي يبدأ، ولا ينتهي؛ لأنه يُشكِّل حجر الزاوية في الممارسة السياسية.

إنّ التربية على هذه المبادئ والمفاهيم ومبادئ أخرى على شاكلتها، سوف يخفّف من حدّة ثنائية الدولة / المواطن، ويوسّع أرضية التبادل، ويساعد على تحقيق أكبر قدر ممكن من المصالح المشتركة، كما يساعد على نهوض المجتمع المسلم واستقراره، لكنّ التربية حتّى تؤتي ثمارها تحتاج إلى صبر ومثابرة، وتحتاج قبل ذلك إلى البذل والتضحية.

* * *

الحسّ الدعوي

هناك خوف مستمر من أن يؤدي طول الأمد وامتداد الزمان إلى حرف الاتجاه وتضييع الأهداف الكبرى؛ حيث إن أي انحراف صغير يكبر مع مرور الأيام ليصبح انحرافًا كبيرًا. لا نجادل اليوم أن هناك اتجاهًا كبيرًا في كل عالمنا الإسلامي إلى التغيير. وفي أحيان كثيرة يشعر الناس بشيء من الإصلاح. وهذا يحدث في غالب الأحيان بسبب الأوضاع الجديدة الناجمة عن التطور التقني - ولا سيما في عالم البث والاتصال - وانفتاح العالم بعضه على بعض. وهذا كثيرًا ما يغري شريحة واسعة من الناس بالانغماس في الحديث عن الإصلاح والمطالبة به.

ونحن أمة نحتاج في الحقيقة إلى إصلاح كل النُّظُم التي لديها: التربوية والتعليمية والاقتصادية ومن بينها النظام السياسي؛ فأوضاع معظم البلدان الإسلامية في المسائل الحقوقية والنزاهة المالية وحسن تصريف الأمور الإدارية - هي أوضاع أقل ما يقال فيها: إنها مخجلة! لكن من المهم أن نكون على وعي بشيء آخر، هو ضرورة الاحتفاظ بـ (الحسّ الدعوي) النقي والمبرّأ من شهوة الحصول على منافع شخصية عاجلة. وأود هنا أن أبدي **الملاحظات الآتية:**

١ - يلاحظ اليوم أن طابع المناداة بالإصلاح يرتدي حلة المطالبة بالحقوق أكثر من أي شيء آخر. فهذه جماعة تريد أن تحصل على حرية التعبير، كما هو شأن المشتغلين بالإعلام. وهذه فئة تطالب بالسماح لها بتشكيل حزب سياسي. وهذا فريق يطالب بتحسين الأجور..

ومع أن كثيرًا من هذه المطالب صحيح إلّا أن الإصلاح يظل بوصفه الحاضر نزاعًا إلى أن يكون الحصول على شيء ما. إن طابعه العام هو الأخذ، وعلى الآخرين أن يعطوا، ويقدموا، ويتنازلوا.. أما الداعية الحقيقي، أو من يغلب عليه الحس الدعوي الحقيقي فإن الطابع العام لأنشطته هو العطاء غير المشروط، والعطاء المصحوب بالحرقة على عموم الخلق. وهذا هو شأن الأنبياء - عليهم الصّلاة والسّلام - إن شعارهم العملي - كما أخبر اللّه تعالى عنهم - هو: ﴿ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الفرقان: ٥٧]. إنهم يدعون الصغير والكبير والشريف والوضيع والغني والفقير، يدعونهم إلى ما فيه صلاحهم في شأنهم الديني والأخروي أولًا وصلاحهم الدنيوي ثانيًا. أما الذين يدعون إلى الإصلاح اليوم فإن الذي يغلب عليهم هو المطالبة بإصلاح أمور تمس الأمور الدنيوية والمعاشية في المقام الأول. وهم شيئًا فشيئًا بدؤوا ينظرون إلى مسائل التقوى والورع وأداء الشعائر والكف عن المعاصي على أنها مسائل شخصية، يتصرف فيها الناس بحكم أنهم مسلمون واعون ومخلصون. مع أن الذي

يتأمل في النصوص الكريمة يجد أن صلاح السلوك الشخصي للمسلم يشكّل أهم المحاور التي ذهبت باهتمام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - واهتمام من تبعهم بإحسان من أتباعهم وحوارييهم.

٢ - حين يمتلك المرء الحس الدعوي فإنه يجد نفسه مندفعًا في اتجاه جميع الناس على اختلاف مواقعهم الاجتماعية وعلى اختلاف مذاهبهم وانتماءاتهم، إنه يبلغ رسالة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ويجعل من صوته امتدادًا لأصواتهم. ومن ثم تصبح الدعوة أداة لتمتين اللحمة الاجتماعية وأداة لتجميع الناس على قضايا محددة وبسيطة: قضية الإيمان والتقوى والعمل الصالح وفعل الخير والنجاة في الآخرة. وكل هذه المفردات تشكل حاجات أساسية لعموم الناس. وتجد في هذه الحالة نوعًا من الاهتمام الخاص يوجّه للفقراء والضعفاء، وكل أولئك المحتاجين إلى العون. وهؤلاء يشكلون البنية الأساسية لأتباع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والبنية الأساسية لكل الصحوات الإسلامية المتتابعة.

أما حين يضعف الحس الدعوي فإن الخطاب آنذاك تصوغه نخب متحالفة أو متشاحنة، ويصبح الطرح الإصلاحي أداة لتقسيم الناس إلى خاصة وعامة وأداة لتنمية الروح الحزبية وروح الفرقاء المتشاكسين الذين يتحدثون من أفق المجاملة الفكرية

والسياسية والثقافية والطائفية. ويستهدفون باستمرار تحقيق مكاسب حزبية أو تسجيل مواقف تاريخية أو إثبات الأهلية للدخول في تحالفات نقية وغير نقية. وتسود أجواء من ضعف الثقة وضعف المصداقية، ويصبح التشكيك والاتهام من أدوات التنمية الثقافية والسياسية. ويضيع في غمرة كل ذلك الحس الأخلاقي العميق والالتزام بتعميق التديّن لدى عموم الناس!.

٣ - حين يضعف الحس الدعوي في مجتمع من المجتمعات المسلمة تسود درجة كبيرة من البطالة في صفوف الشباب؛ لأنهم يفقدون المحرّك الداخلي لبذل النصح وهداية الخلق، ويفقدون الأفق الفكري الذي يؤطر حركتهم الاجتماعية. ويجدون أنفسهم في الوقت نفسه عاجزين عن استيعاب الطروحات الإصلاحية - التي يصوغها في العادة صفوة - وشرحها للناس.

إنهم يشعرون أنهم أصبحوا كمن هدم بيته ليبني في مكانه قصرًا مشيدًا، لكن بعد الهدم وجد أن تكاليف بناء القصر تفوق بكثير ما لديه، ولهذا فإنه وجد نفسه في العراء!.

المجال الدعوي بطبيعته رحب الأرجاء، حيث يجد كل من لديه أدنى علم مؤهلًا لقول كلمة خير في سياق نصيحة أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو حث على فضيلة.

أما المجال الإصلاحي بوصفه صناعة نخب، فإنه لا يتسع إلّا إلى أقل القليل من الشباب، لكن معظم الناس لا يدركون هذا، ويأخذون في الحديث عن أمور لا يعرفون عنها الكثير، ولا يجنون من وراء الحديث فيها أي شيء ذي قيمة. ولو نظرنا إلى مجادلات الشباب اليوم حول الديمقراطية والعلاقة بالغرب وحقوق المرأة وفوائد تشكيل النقابات، ونشر الحريات - لتأكدت من صحة هذا القول - .

من المهم أن يشتغل بالقضايا الإصلاحية واحد أو اثنان في المئة من أهل الخير والعلم. وعلى الباقين أن ينشغلوا بحماية المجتمع من التحلل الخلقي، وينشغلوا بنشر العلم وتربية الناشئة وإعدادهم للمستقبل. وإلّا فسيجد كثير من الناس أنفسهم مشغولين بالإصلاح بوصفه (حديث مجالس) وطقطقات صحفية ليس أكثر.

إن من مهام أهل الفكر والعلم أن يرقبوا وجوه الخلل في توازن المسيرة الدعوية، ويحاولوا إعادة الأمور إلى مجراها الصحيح، وإلّا فإن من شأن الامتداد أن يقتل الاتجاه، كما يقتل المكان الزمان.

* * *

بالعلم لا بالذكاء

في تاريخ الأمم جدل قديم حول علاقة العقل بالعلم وحول القدر المطلوب من كل منهما للإبداع والإنجاز المتفوق. وكثيرًا ما كانت ترجح كفة الذين يقدمون العقل على العلم، وربما كان ذلك بسبب الاعتقاد بإمكانية الحصول على العلم ويسر ذلك، على حين أن الموهبة والذكاء من الأمور التي لا يمكن اكتسابها. وعزز من مكانة المقدمين للعقل تعاظم نفوذ المنطق اليوناني في العديد من علوم الثقافة الإسلامية، والذي يُنظر إليه على أنه إنجاز عقلي محض. وقد وصل الأمر إلى النظر إلى تفضيل العلم على العقل على أنه اتجاه سوقي لا يليق بمثقف رصين!

وأعتقد أن ذلك الجدل سيظل قائمًا، وسيظل حسمه صعبًا ما دام الغموض والالتباس يلف نظرتنا لطبيعة العقل وطبيعة عمله وطبيعة علاقته بالخبرة والمعرفة. ومع أن كل هذا لم يتضح بالقدر الكافي الذي يتيح لنا الشعور بأننا نقف على أرض صلبة إلّا أنه **من الممكن أن نبلور بعض العلامات التي تساعدنا على السير في هذا الطريق الشائك. ولعل منها الآتي:**

١ - ليس هناك خلاف معتبر في أن الإنجاز العالي والمتقدم

جدًّا يفتقر إلى كل من الذكاء والعلم. الخيال الخصب ينقلنا إلى خارج حدود الخبرة، أو يضعنا - على الأقل - على حافتها. والقدرة العالية على التحليل والتركيب تمكننا من القيام بعملية (خض) واسعة النطاق للمعرفة المتحصلة لدينا. وذلك الخض هو الذي يمكننا من تنظيم تلك المعرفة واستثمارها في الوصول إلى شيء جديد.

الذكاء العالي والعقل المتوهج يصدر ومضات إبداعية فذة، تمكننا من تعرُّف بداية طريق لم يسلك من قبل، لكن السير المظفر حتى بلوغ الغاية لا يمكن أن يكون من غير بحث وعلم بالدقائق والتفاصيل. وهذا هو الذي يفسّر الوضعية العالمية السائدة اليوم. فمع أن البارئ ﷻ وزّع الذكاء على الأمم والشعوب - وليس الأفراد - بالتساوي إلّا أن الأمم التي استطاعت توليد المعرفة الثرّة هي التي تبدع، وتخترع اليوم.

الذكاء من غير معرفة ملائمة قليل الجدوى، وعقل متوسط في إمكاناته مع معرفة جيدة وبيئة علمية ومناسبة يُمَكِّن - من غير شك - صاحبه من التفوّق والنجاح والتميّز.

٢ - إن الاعتزاز بالدور الذي يمكن للعقل أن يقوم به نابع في جزء منه من انتشار الأمية وضآلة المعارف المطلوبة للتقدم الحضاري؛ فحين يتقارب الناس في محصلاتهم

العلمية فإن الذي يلفت النظر آنذاك هو الذكاء الفطري، ولا سيما سرعة البديهة والخيال الخصب؛ لكن الأمر يختلف على نحو كبير حين تتراكم المعارف والمعلومات وتنشط آليات صناعتها. والقاعدة العامة في هذا الشأن وفي كل شأن هي أنه كلما أوغل الناس في الحضارة صارت قيمة ما هو مكتسب أهم مما هو فطري، حتى المواد الخام والموارد الطبيعية المختلفة تتراجع قيمتها الفعلية لصالح التقنية والتصنيع والتدريب والإدارة.

ومما يذكر في هذا السياق أن اليابان تستورد من بعض الدول العربية (طن) الألمنيوم بما يعادل (٨٠٠) دولار. وبعد تصنيعه وإدخال الخبرة المرموقة في إعادة تشكيله تبيع الطن الواحد بما قيمته (مئة ألف دولار).

وهكذا مع مرور الأيام ستتراجع قيمة الذكاء المحض ليصبح أحد عناصر التفوق والنجاح عوضًا عن كونه العنصر الأهم فيه. ومن المهم جدًّا لنا جميعًا أن ندرك طبيعة هذه التحولات، ونسجم معها. وإن الاعتقاد الشعبي السائد بمطابقة الذكاء للإبداع زهّد الناس باكتساب العلوم والمعارف. وقد ورثنا تقاليد ثقافية سيئة، يقوم العديد منها على إعطاء دور مبالغ فيه للعقل في تصور المشكلات وإيجاد حلول لها من غير الشعور بأي حاجة لاستقراء الواقع والبحث في معطياته وليس لدينا إلى هذه اللحظة ما يشير على نحو

حاسم إلى أننا اعتمدنا المعرفة المنظمة والدقيقة مدخلًا ضروريًا للفهم والتقدم والثراء؛ فقطاع التعليم وقطاع البحث العلمي هما في نظر الكثيرين من القطاعات الخدمية، التي تأخذ ولا تعطي.

إن البلدان المتقدمة - كما ذكرنا - تنفق على البحث العلمي ما يزيد على (٢٪) من ناتجها القومي الضخم، على حين أننا ننفق من النواتج القومية لدينا ما لا يزيد على (٢) أو (٣) بالألف مع ضآلة تلك النواتج! وليس السبب في هذه المفارقة أننا لا نملك القدرة على الإنفاق - كما ندعي دائمًا - وإنما يكمن السبب في أننا لا نملك الإرادة. ونحن لا نملك الإرادة لأننا لا نعرف قيمة توجيه المال إلى الحقول المصرفية.

٣ - قد يكون من المفيد أن نعمّق النظر إلى مجال عمل العقل وإلى المجال الذي تعدُّ فيه مساندة المعرفة شيئًا جوهريًا. ومع أن المشهد لا يخلو من شيء من الغموض والتعقيد بسبب العلاقات المتدرجة بين المجالات المختلفة إلّا أنه يمكن القول على نحو مجمل: إن العقل يرتبك ارتباكًا عظيمًا حين يطلب منه تحديد مبادئ كبرى أو غايات نهائية؛ فعلى مدار التاريخ اشتغلت عقول عملاقة على تحديد أسباب وجودنا على هذه الأرض، كما اشتغلت بالغاية النهائية للخلق، ولم تخرج من كل ذلك إلّا بالمزيد من الأقوال المتضاربة والغارقة في الظن والوهم. بل إن العقل كثيرًا ما يبدي العجز عن

تحديد بعض مفردات الخير والشر، والنافع والضار، والآمن والخطر، والمهم وغير المهم.. والسبب في كل ذلك أن البارئ - جلَّ وعلا - فطر العقل على العمل ضمن أطر ومحددات معينة. كما أن ليس في الدماغ (خانة) تقدّم له المعونة في تحديد الأشياء التي أشرت إليها. إن الوحي هو الذي يحدد كثيرًا من ذلك. وما هو في منطقة (العفو) أو الفراغ القانوني تحدده الثقافة والأعراف والتقاليد. وعقولنا ترتبك كثيرًا في التعامل مع (الكيف) أو ما نسميه (الصفات) على حين أنها تنجز على نحو باهر في الأمور الكمية، وكل ما يمكن التعامل معه عن طريق القيم الرقمية.

لا أريد أن أعطي انطباعًا بانعدام وجود قيمة حقيقية للتأمل والنظر المجرّد، فهذا غير صحيح؛ حيث إن للتفكير التجريدي دوره الأساسي في اكتشاف جميع الحقائق والقوانين الرياضية، وله دور مهم في فهم الأحداث التاريخية والإيحاء بإمكانات واحتمالات جديدة، لكن ذلك يتم على أنه من الأمور الظنية وغير المؤكدة. لكن العقل البشري لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة واثقة في (علم الاجتماع) دون أن تُجمع له المعلومات الملائمة حول أمور مثل وضعية التواصل الاجتماعي في بيئة ما، ومثل دور الثقافة الشعبية في استمرار المجتمع والعوامل الأكثر تأثيرًا في تطوره.. كما أنه لا يستطيع أن يحرز أي تقدم في (علم

الاقتصاد) دون البحث في مسائل مثل إنتاج السلع وتوزيعها ومثل الندرة والبطالة والتضخم. وهو في كل هذا يفتقر افتقارًا كليًا إلى المعلومات والإحصاءات الغنية والدقيقة.

إني أعتقد أنه قد آن الأوان لتقرير مواد دراسية في المرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية، تتيح لأبنائنا الطلاب المفاهيم التي تساعدهم على معرفة الدور الحقيقي للعقل في الاكتشاف إلى جانب إسهامات المعارف والتجارب في ذلك؛ بالإضافة إلى الأخطاء والأوهام التي تقع نتيجة إعمال العقل وتشغيله والأخطاء التي تقع بسبب تشغيل العقل من غير زاد كاف من المعرفة والخبرة.

إننا نقف على أعتاب عصر جديد يحتل فيه الفهم للسنن الربانية والفهم لطبائع الأشياء وانفتاح الذات على العلاقات مكانة خطيرة وحاسمة. ويجب ألّا نقف متفرجين إلى أن نجد أنفسنا في زاوية أكثر حرجًا وأشد ضيقًا.

* * *

السيرة الذاتية للمؤلف

أ. د. عبد الكريم بكار.

حصل على البكالوريوس من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، وعلى الماجستير في عام: (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، والدكتوراه في عام: (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) من قسم أصول اللغة بالكلية نفسها بجامعة الأزهر، وكان عنوان رسالة الدكتوراه: « الأصوات واللهجات في قراءة الكسائي ».

قاد د. عبد الكريم بكار مسيرة أكاديمية طويلة، دامت (٢٦ عامًا) بدأت عام: (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم (السعودية)، لينتقل بعدها إلى جامعة الملك خالد في أبها في عام: (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، حصل خلالها على درجة الأستاذية في عام: (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) وليبقى فيها حتى استقال منها عام: (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)؛ ليتفرغ للتأليف والعمل الثقافي والفكري، حيث يقيم في العاصمة السعودية الرياض.

وتركزت المسيرة الأكاديمية للدكتور بكار على تدريس اللُّغويات، والتي شملت مواد المعاجم اللُّغوية، دلالة الألفاظ، الأصوات اللغوية، اللهجات العربية، القراءات القرآنية واللهجات،

النحو، الصرف، المدارس النحوية وتاريخ النحو. كما قدم د. بكار خلال تلك الفترة عددًا من الأبحاث والكتب المتخصصة والتعليمية في مجال اللُّغويات، وأسهم في النشاط الأكاديمي للجامعات التي عمل بها من خلال رئاسته لعدد كبير من اللجان العلمية، ورئاسته لقسم النحو والصرف وفقه اللغة لعدة سنوات، ومساهمته في وضع المناهج، والإشراف على البحوث، وتحكيم الدراسات العلمية.

وللدكتور بكار نشاط مكثف على صعيد المحاضرات، والندوات الفكرية والثقافية والدورات التدريبية، وشارك في المئات منها في المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والبحرين وتركيا ولبنان ومصر والأُردن وماليزيا والسودان. كما يقدم حاليًا برنامجًا أسبوعيًا في قناة دليل الإسلامية باسم: « آفاق حضارية »، وبرنامجًا شهريًا بقناة المجد باسم: « معالي »، وكان د. بكار قد قدم برنامجًا تلفزيونيًا أسبوعيًا في قناة المجد باسم: « دروب النهضة » لمدة عامين، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا باسم: « بناء العقل في القرآن الكريم »، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا آخر باسم: (العلاقات الإنسانية في المجتمع الإسلامي) استمرا لمدة سنتين بإذاعة القرآن الكريم بالرياض؛ بالإضافة لاستضافته في برامج عديدة على قناة الرسالة، وقناة اقرأ، وقناة الناس والتلفزيون السعودي.

ويحرص د. بكار على أن يقدم رؤاه الفكرية والتربوية من خلال مشاركته الواسعة في مختلف الصحف، والمجلات العربية المتخصصة والعامة؛ حيث يكتب د. بكار مقالات دورية في مجلة البيان اللندنية ومجلة الإسلام اليوم الشهرية، ومجلة: « مهارتي » الصادرة عن جامعة الملك سعود وموقع « الإسلام اليوم »، كما يشارك باستمرار منذ أكثر من عشرين سنة بمقالاته ودراساته في عدد من المجلات الدورية الأخرى.

ود. بكار عضو في المجلس التأسيسي للهيئة العالمية للإعلام الإسلامي التابعة لرابطة العالم الإسلامي (الرياض)، وعضو الهيئة الاستشارية بمجلة: « الإسلام اليوم » (الرياض)، وعضو الهيئة التأسيسية لقناة دليل، وعضو في مجلس الأمناء لقناة سنا الفضائية (عمان).

ويعد د. بكار أحد المؤلفين البارزين في مجالات التربية والفكر الإسلامي؛ حيث يسعى إلى تقديم طرح مؤصل ومجدد لمختلف القضايا ذات العلاقة بالحضارة الإسلامية، وقضايا النهضة والفكر والتربية، والعمل الدعوي.

وللدكتور بكار حوالي ثلاثين كتابًا في هذا المجال؛ لقي الكثير منها رواجًا واسعًا في مختلف دول العالم العربي، كما قدم د. بكار للمكتبة الصوتية أكثر من مائة ساعة صوتية مسجلة ومنشورة في مكتبات التسجيلات الصوتية.

وفيما يلي قائمة بالكتب والدراسات الأكاديمية المتخصصة:

١ - أصول توجيه القراءات ومذاهب النحويين فيها حتى نهاية القرن الرابع الهجري، بحث غير منشور، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٢ - ابن مجاهد شيخ قراء بغداد، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالقصيم، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)

٣ - تحقيق كتاب: « القواعد والإشارات في أصول القراءات »، للقاضي أحمد ابن عمر الحموي، دار القلم، دمشق (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٤ - الصفوة من القواعد الإعرابية، دار القلم، دمشق (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٥ - تحقيق كتاب « رد الانتقاد على الشافعي في اللغة » للإمام البيهقي، دار البخاري، بريدة، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٦ - أثر القراءات السبع في تطور التفكير اللغوي، دار القلم، دمشق (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

٧ - المهدوي ومنهجه في كتابه الموضح، دار القلم، دمشق، (١٤١١هـ/١٩٩١م).

٨ - ابن عباس مؤسس علوم العربية، دار السوادي، جدة، (١٤١١هـ/١٩٩١م).

٩ - دراسة لإنشاء مركز لتعليم اللغة العربية، كلية اللغة العربية بأبها، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

أمّا الكتب التربوية والفكرية الصادرة للدكتور بكار؛ فمنها الكتب التالية:

١ - فصول في التفكير الموضوعي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

٢ - نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، دار المسلم، الرياض، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٣ - من أجل انطلاقة حضارية شاملة، دار المسلم، الرياض (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٤ - مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، دار المسلم، الرياض، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

٥ - مدخل إلى التنمية المتكاملة، دار المسلم، الرياض، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٦ - في إشراقة آية، دار هجر، أبها (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٧ - من أجل شباب جديد، بحث منشور في وقائع المؤتمر السنوي للندوة العالمية للشباب الإسلامي، عمّان، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

٨ - حول التربية والتعليم، دار المسلم، الرياض (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

٩ - العولمة، دار الأعلام، عمّان، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

١٠ - القراءة المثمرة، دار القلم، دمشق، (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

١١ - العيش في الزمان الصعب، دار القلم، دمشق، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١٢ - هي هكذا، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

١٣ - مسار الأسرة، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

١٤ - القواعد العشر، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

١٥ - التواصل الأسري، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٦ - تكوين المفكر: خطوات عملية، دار السلام، القاهرة، (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

رقم الإيداع

٩٩١٤/٢٠١٠

الترقيم الدولي I.S.B.N

978-977-342-892-1

الكِتَابُ فِي سُطُورٍ

إن الطموح كبير في بناء ثقافة تحرض على الوعي، وتخرج بالإنسان من الكلالة إلى الفاعلية والإنجاز، هذه الثقافة هي المدخل الرئيس لبناء نهوض وتحرر إرادة، والأمل أكبر في أن يكون لكلٍّ منا مشروعه الخاص بلا انتظار لأمور خارقة؛ لأن حركة التاريخ تصنعها آلاف الجهود الصغيرة. ودفعًا للتحديات الراهنة وانسلاخًا عن التقوقع في الماضي وجب علينا الإيمان بأن المشاريع الصغيرة الواقعية خير من الشعارات الكبيرة الخيالية.

Dar-Alsalam Designs

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

ISBN: 978-977-342-892-1
9 789773 428921 >